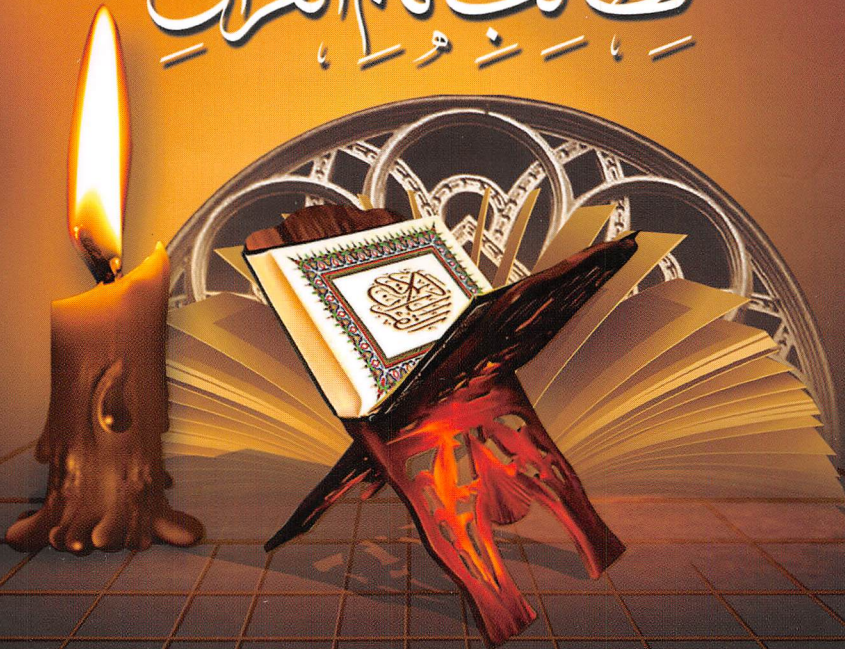
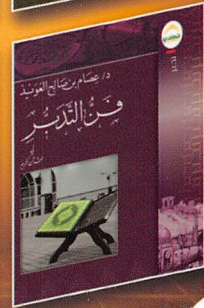
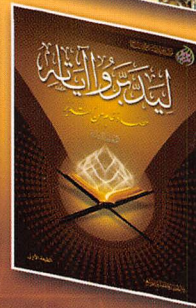
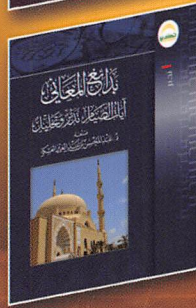
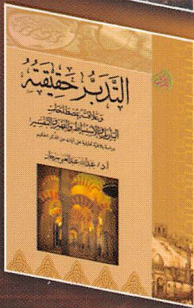
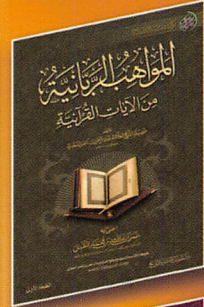
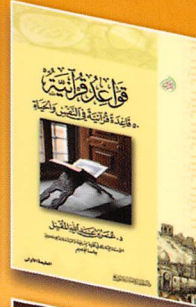
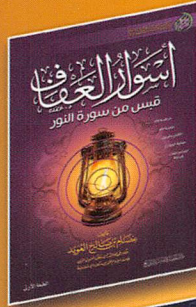
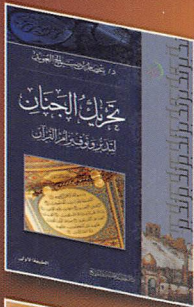
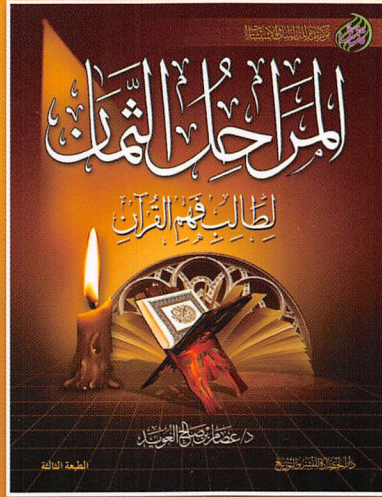


المزاحمة في التعليل

لطالب فهم القرآن



د/ عصام بن صالح العويش



للتواصل مع الدار: ص. ب: ١٠٢٨٢٢ الرياض ١١٦٨٥

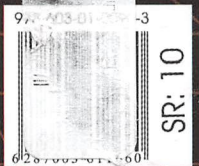
فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤ - المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٣٩ - فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

المنطقة الغربية: تليفون ٠٢/٦١٤٣٩٢٠ - فاكس: ٠٢/٦١٤٣٩٦٠

البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com.sa

موقعنا الإلكتروني: www.daralhadarah.com

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨





لِمَرَا حِلِّ الثَّمَانِ

لِطَالِبِ فَهْمِ الْقُرْآنِ

عَضُدُ الدِّينِ سَيِّدُ الْعُرَى

عضو هيئة التدريس

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الناشر



مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية.

الطبعة الثالثة

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

المملكة العربية السعودية.

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة: ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي tadabbor@tadabbor.com

ح) عصام صالح محمد العويد، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العويد، عصام صالح محمد

المراحل الثمان لطالب فهم القرآن. / عصام صالح محمد العويد

ط ٣ - الرياض، ١٤٣٣هـ

١٦٨ ص، ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٣ - ٠٠٩٠ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

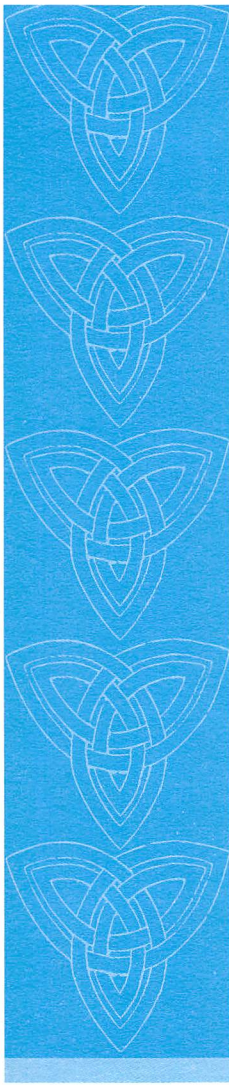
١ - القرآن ٢ - مناهج التفسير ٢ - التأمل أ. العنوان

١٤٣٣ / ٤٧٩٦

ديوي ١، ٢٢٧

رقم الإيداع: ٤٧٩٦ / ١٤٣٣

ردمك: ٣ - ٠٠٩٠ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨



مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وبعد:

فإن إقبال عموم المسلمين -بله طلبة العلم- على تدبر القرآن الكريم؛ لأمر يبعث على السرور والاستبشار، كيف لا؟ وهذا الأمر هو أحد أهم مقومات عودة الأمة إلى مجدها وعزّها الذي فقدته حين ابتعدت عن كتاب ربها، وهجرته بأنواع من الهجر^(١)، ومن أعظمه: هجر تدبره والعمل به، والتحاكم إليه، إلا ما شاء الله.

ولما كان القرآنُ المجيدُ أصلَ العلوم كلها، كان لا بد من ضبط المنهجية التي يتعامل بها طلاب العلم في فهم كلام الله تعالى، حتى لا تزل قدم، ولا يزيغ فهم عن جادة السلف الصالح، الذين فهموا القرآن كما ينبغي، فترجموه واقعاً عملياً، فسادوا به الأمم، ودانت لهم الدنيا.

وضبطُ هذه المنهجية تحتاج إلى دراسات كثيرة وكتابات متنوعة من أهل

(١) وقد فصل ابن القيم -رحمه الله- أنواع الهجر هذه في صدر كتابه «الفوائد» (ص ٨٥).

الاختصاص، وما هذه الدراسة الموسومة بـ: «المراحل الثمان لطالب فهم القرآن» التي قام بها أخونا فضيلة الشيخ عصام بن صالح بن محمد العويّد -عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والعضو المؤسس للهيئة العالمية لتدبر القرآن- إلا إسهامٌ في ضبط المنهج، وإرشاد طالب العلم السالك في هذا الباب.

وَيُسَرُّنا وَيُسَرُّفنا في مركز تدبر، أن تكون أول طبعة لهذا الكتاب ضمن إصدارات المركز المتخصصة في هذا الباب، وهو في الوقت ذاته حلقة في سلسلة متتابعة -بإذن الله- في نشر كل ما يخدم هذا المعنى الشرعي العظيم: «التدبر».

وأجدها فرصة لرف البشارة لجميع الباحثين المهتمين بهذا الموضوع، بأننا في مركز تدبر نسعد ونرحب بالدراسات العلمية الجادة التي تؤصل وتبحث في هذا الموضوع (التدبر)، وسنكون أول المعينين -بإذن الله- على نشرها وطبعها وتوزيعها، بعد إجازتها من اللجنة المختصة.

ختامًا.. أشكر أخي وصديقي العزيز فضيلة الشيخ عصام على هذا الجهد المبارك في تحرير هذه الرسالة، جعلها في ميزان حسناته، وذخرًا له في حياته وبعد مماته.

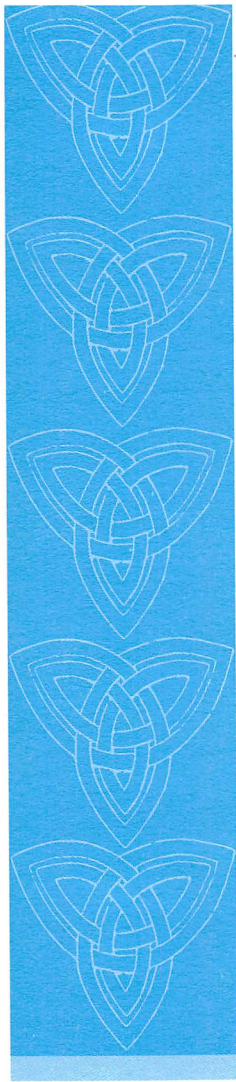
وكتبه/

د. عمر بن عبد الله المقبل

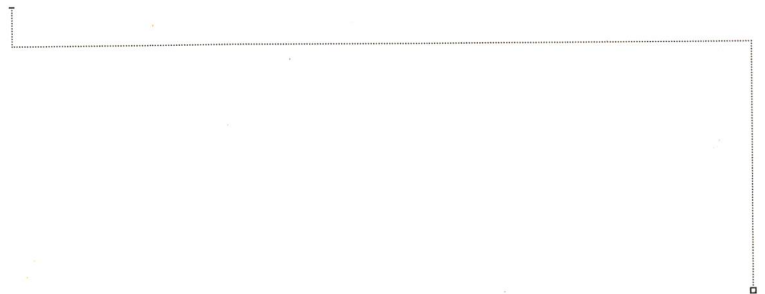
المستشار العلمي لمركز تدبر

عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة

جامعة القصيم



المقدمة



﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه،،

أما بعد:

فهذه رسالة « المراحل الثمان لطالب فهم القرآن »، وهي في أصلها دروس علمية ألفت على عدد من المشرفات والمدربات في مدارس تحفيظ القرآن النسائية^(١)، وهي رسالة علمية محضه، تتحدث عن أمر جليل القدر عظيم الأثر، يتعلق بكلام الملك الرحمن عز وجل الذي أنزله على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يُنتِزُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٩) الحديد.

(١) في الفصل الثاني للعام الدراسي ١٤٢٢-١٤٢٣ هـ.

وصفه تارة بأنه نور: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وِرْسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨)

التغابن.

وتارة بأنه برهان: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (١٧٤) النساء.

وفي ثالثة بأنه الحق وما ناقضه ضلال: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (١٠٨) يونس.

وفي أخرى بأنه موعظة وشفاء وهدى ورحمة: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) يونس.

وتوعد من قلاه وأعرض عنه ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ (١٢٤) طه، وذكره هو القرآن.

وصدق الله إذ يقول: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُوكَ﴾ (٥٠) المرسلات.

وما أجمل قول الشاطبي - رحمه الله - واصفاً كتاب الله تعالى في ألفيته

المشهورة:

وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَوْثَقُ شَافِعِ ★★★ وَأَغْنَىٰ غِنَاءٍ وَاهِبًا مُتَفَضِّلًا
وَحَيْرٌ جَلِيسٌ لَا يَمَلُّ حَدِيثُهُ ★★★ وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلاً
وَحَيْثُ الْفَتَى يَرْتَأُ فِي ظُلُمَاتِهِ ★★★ مِّنَ الْقَبْرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلًا

وكنْتُ أعجب - كما عجب أسلافنا - من مقولٍ بليغٍ لعربي جاهليٍ صنيديٍّ عنيديٍّ وهو يصف القرآن المجيد، يقول: «والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن

أعلاه لثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلَى».

فلما قرأتُ قولَ بليغِ فيلسوفٍ! فرنسي!! ملحد!!! وهو جوزيف آرنست رنان، زال -والله- عجبِي منهم، وبقي عجبِي مِنَّا، واسمع لما يقول:

«تضم مكتبتي آلاف الكتب السياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها والتي لم أقرأها أكثر من مرة واحدة، وما أكثر الكتب التي للزينة فقط، ولكن هناك كتاب واحد تؤنسني قراءته دائماً هو كتاب المسلمين القرآن، فكلما أحسست بالإجهاد وأردت أن تنفتح لي أبواب المعاني والكمالات، طالعت القرآن حيث إنني لا أحس بالتعب أو الملل بمطالعتة بكثرة، لو أراد أحد أن يعتقد بكتاب نزل من السماء فإن ذلك الكتاب هو القرآن لا غير، إذ أن الكتب الأخرى ليست لها خصائص القرآن».

أليست هي بنفسها مقولة الوليد بن المغيرة؟

فما الذي جعل الوليد وجوزيف! يتفقان على أن القرآن (يعلو ولا يُعلَى عليه)؟

صدق الله عز وجل ﴿وَلَئِنَّهُ فِي أُولَئِكَ لَلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّى حَكِيمٌ ۝٤﴾ الزخرف.

وقد تأملت في أحوال أمة محمد ﷺ فوجدت أنهم في موقفهم من كتاب الله على

أقسام ثلاثة:

أ- قسم أعرض عن كتاب الله وهؤلاء خصماء رسول الله ﷺ يوم القيامة ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ الفرقان، وليس الحديث معه في هذه الرسالة.

ب- قسم يقرأ كتاب الله تعالى للتلاوة فقط، وأيضاً هذا القسم له رسالة أخرى

غير هذه.

ج- قسم يُراجع كتب التفسير، وله همة في فهم كتاب الله، لكنه يشعر بأنه ما زال بعيداً عن التدبر الحق لهذا الكتاب العظيم، ولذا كثيراً ما ترد وتُلح عليه تلك الأسئلة الثلاث، ولهذا وأمثاله - كثر الله من أمثاله - كانت هذه الرسالة.

وهذه الرسالة هي الثالثة بعد أختيها، كتبها لأهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، رَقَمْتُها بل نقشتُها لما وقفتُ من أحبتي على عمل يعوزه علم، وقراءة يعوزها فهم، ورأيتُ جُهداً يعوزه تسديد، وسيراً على طريق يعوزه تعييد.

وهي ثلاثة أثلاث: ثلثُ الله ورسوله ﷺ، ثم ثلثُ لأئمة أهل العلم، وثلثُ ملاطٍ بينهما، وقد كنت أخشى كثيراً أن يتوقف القلب قبل أن يحف القلم، لكن الله - بفضله - أمدَّ بالعمر فأحمد الله على توفيقه.

ولعلك - أخي المبارك - عندما تعي مضمونَ هذه الرسالة ستجد (مفاتيح) جوابٍ سهلٍ واضحٍ عن أسئلة ثلاثة أعيت العقولَ وأمَرَضت القلوبَ المؤمنة:

١- كيف فهم سلفنا هذا الكتاب المهيمن، وكيف كان حالهم بعد أن فهموه؟

٢- لم نقرأ كتب التفسير ولا ندرك المعنى العظيم لآيات هذا القرآن العظيم، أي لم لا نستشعر إعجاز كلام الله حال قراءتنا له، مع يقيننا التام بأنه معجز؟

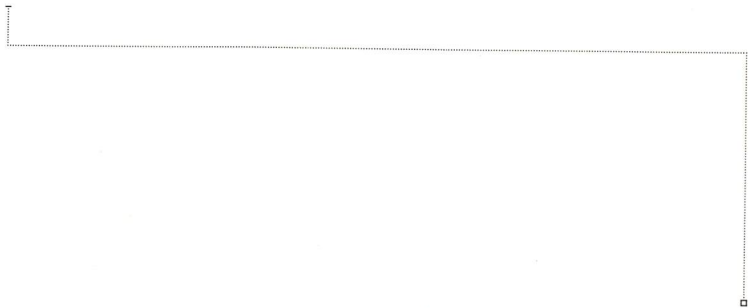
٣- كيف يكون القرآن العظيم هادياً لنا وفيصلاً بيننا في كل شؤوننا العقدية والتعبدية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والسياسية والإعلامية والذاتية ونحوها؟

أسأل الله أن يعصمني وإياك من الزلل ومن خطئ القول والعمل.





تمهید



القرآن العظيم كلام الله عز وجل، تكلم به حقيقة على ما يليق بجلال قدره وعظيم سلطانه، وهذا الكلام منه - جل وعلا - نزل بلسان عربي مبين ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٨٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ ١٨٤ ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ ١٨٥ ﴾ الشعراء، وقال سبحانه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) يوسف، وقال: ﴿ كَتَبْتُ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) فصلت، وقال: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢) الأحقاف.

والكلام في هذا اللسان العربي إنما هو بحرف وصوت، والحروف على نوعين:

◆ **حروف مباني:** أي يُبنى منها الكلام، وهي ليست لها معنى في نفسها، ولكن لها دلالة بعد التركيب، مثل: الميم من محمد، والعين من سعد، والراء من عمر ونحو ذلك، ولا علاقة لنا بها في هذه المباحث.

◆ **حروف معاني:** وهي التي تربط بين الكلمات لتعطي دلالة معينة يقصدها

المتحدث، مثل: دلالة حرف «الباء» على الاستعانة في كلمة «بسم الله»، ودلالة حرف «اللام» على التعليل في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾، ودلالة حرف «على» على الظرفية في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ...﴾، وهذا المبحث له علاقة كبيرة جداً بموضوع الرسالة.

فحروف المباني تتكون منها الكلمات، وهذه الكلمات يُربط بينها بحروف المعاني فتتكون الجمل، والجمل مع بعضها يتكون منها الكلام التام.

كذلك الحال في كتاب الله ؛ فالآية تتكون من كلمات، وهذه الكلمات تربط بينها حروف المعاني فتتكون الجمل، والجمل مع بعضها تتكون منها الآيات.

وهذه الكلمات والحروف الرابطة والجمل والسياق قد اتصل بعضها ببعض على أكمل وجه، وأحكم عبارة، وأتم معنى، لا اختلاف ولا تناقض ولا اضطراب، وإنما هو محكمٌ مبينٌ فرقانٌ مثاني، يصدق بعضه بعضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَانٍ﴾ (٢٣) الزمر.

وقال تعالى: ﴿الرَّكَنُ أَهْكَمْتُ إِيَّاهُ، ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١) هود.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) النساء.

جمع أنواع الإعجاز كلها، فهو معجز في نظمه، معجز في فصاحته، في حلاوة تكراره، في أخباره، في أسرارهِ، في عقيدته، في دعوته، في تشريعه، في شفاؤه لأمراض الروح والبدن، في السكينة والطمأنينة والراحة والأنس به عند من يتلوه حق تلاوته، وغيرها كثير.

ولذا قال الله عز وجل - وهو يبين أن القرآن يحوي كل ما يحتاج إليه العباد بما

فيه صلاحهم في العاجل والآجل - ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) النحل.

أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في «شعب الإيمان» قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين»^(١).

وقال أيضاً: «إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»^(٢).

قال شمر: تثوير القرآن قراءته ومفاتيحه العلماء به في تفسيره ومعانيه^(٣).

◆ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«القرآن ﴿نَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) فصلت، وهو كتاب ﴿كِتَابٌ أُوحِيَ إِلَيْهِ»

ثُمَّ فُصِّلَتْ (١) ﴿هُدًى، ولو أن رجلاً من بني آدم له علم أو حكمة أو خطبة أو قصيدة أو مصنف، فهدب ألفاظ ذلك، وأتى فيه بمثل هذا التغير؛ لعلم أنه قصد في ذلك حكمة، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع إتحاد المعنى سدى، فكيف بكلام رب العالمين وأحكم الحاكمين؟ لاسيما وقد قال فيه ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) الإسراء»^(٤).

١- إذا تبين هذا ؛ فلتفسير أي آية من كتاب الله تعالى تفسيراً يتضح معه المعنى العظيم للآية [نظماً، وفهماً، وإعجازاً، ودلالة، وترتية] نحتاج إلى تجاوز

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٦٦/٧، والبيهقي في «الشعب» ٣٣١/٢.

(٢) حلية الأولياء ١٣١/١.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي ٤٤٦/١.

(٤) مجموع الفتاوى (٥٥١/١٦).

مراحل ثمانية:

المرحلة الأولى: الوقوف على الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ثم الصحابة وأئمة التابعين في الآيات، سواء ما كان يتعلق بفضائل السور أو أسباب النزول أو التفسير.

المرحلة الثانية: إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية ومقارنته بما جاء عن السلف، ثم الجمع بينهما لتحديد المعنى الكامل والصحيح للكلمة نفسها.

المرحلة الثالثة: معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات.

المرحلة الرابعة: معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها. [كدلالة الجملة الاسمية والفعلية، وأثر التقديم والتأخير ونحو ذلك].

المرحلة الخامسة: فهم دلالة السياق [السِّبَاق واللاحق].

المرحلة السادسة: الإحاطة بالمقصود العام للسورة.

المرحلة السابعة: جمع الآيات الأخرى التي تنزلت في الموضوع نفسه من القرآن كله، ليكتمل المعنى المراد للآية.

المرحلة الثامنة: العناية بتدوين أخبار وقصص الأئمة سلفاً وخلفاً مع القرآن، ثم الاستشهاد بها في محلّها من التفسير. [وهذا مع عظيم فائدته إلا أنه من مُلح التفسير لا من متينه]

هذه المراحل كلها تدور حول علم التفسير وأدواته، وهذا العلم -علم التفسير- هو أوسع العلوم على الإطلاق، وهو في الظاهر من أسهل العلوم وأيسرها، فهو كما قيل: قصرُ سورهِ من جريد، وأبوابُ غُرفهِ من حديد.

وقبل البدء في صلب الموضوع، سأحصر المراجع الرئيسة التي نحتاج إليها في هذه المراحل، حتى لا تتشعب بنا الطرق في كتب اللغة والتفسير - وما أكثرها - فمن هذه الكتب:

٢- كتب التفسير بالمأثور: ومن أجودها:

- تفسير الطبري (جامع البيان). وإن كان عسراً عليك فتفسير ابن كثير (طبعة البنا).

- تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

- التفسير الصحيح لـ د/ حكمت بن ياسين. (مع تشدد في تضعيف الآثار).

٣- كتب التفسير اللغوي البلاغي: ومن أجودها:

- تفسير البيضاوي، أو أبي السعود، أو ابن عطية.

- تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور.

مع الحذر من الزلات العقدية فيها، وسيأتي بيان كيفية التعامل معها بإذن الله.

٤- كتب تفسير تُعنى بالتربية والفوائد والمعنى العام: ومن أجودها:

- تفسير العلامة عبد الرحمن السَّعدي (تيسير الكريم الرحمن).

- أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري.

٥- كتب مساعدة مفيدة، منها:

- معجم حروف المعاني للقرآن الكريم لمحمد حسن شريف.

- مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، أو الصَّحاح للجوهري. وغيرها،،،

إن مداومة النظر في هذه الكتب مجتمعة يعين بشكل واضح على فهم كلام السلف، ويدراً المرء عن وصمتين اثنتين:

الأولى: الاستهانة بكلام السلف في التفسير، لأنه سيدرك حينها أن العطب في فهمه لا في كلامهم.

الثانية: الفهم الناقص لكلامهم الذي اضطرَّ البعض ممن يعظم السلف أن يدافع دفاعاً ضعيفاً عن تفسيرهم، ولم يشعر أنه يدافع عن فهمه لا عن كلامهم.

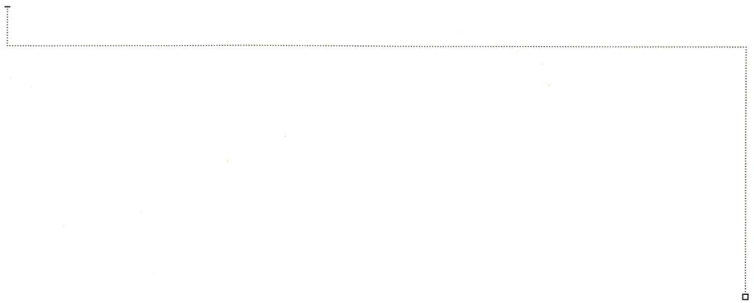
وعلة الوصمتين: أن الناظر في تفسيرهم - وإن فهم بعضها - إلا أنه لم يحيط بكل ما قصدوه من المعاني لجهله بأساليب العرب في كلامها، فإذا استقر ذلك عنده اجتهد حتى يفهم تفسيرهم - مبناه ومغزاه -، ويعرف أصولهم وقواعدهم في الاستنباط، ثم إن بدا له - بعد ذلك - أن يجتهد فليجتهد سدد الله خطاه.



إذا تبين ما سبق؛ فهذه هي المراحل:



المرحلة الأولى



الوقوف على الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ثم الصحابة وأئمة التابعين في الآيات، سواء ما كان يتعلق بفضائل السور أو أسباب النزول أو التفسير.

هذه هي المرحلة الأولى ولا بد^(١)؛ فإن القرآن تنزيلُ رب العالمين، وهو كتاب

(١) من المفيد هنا أن أنقل لك كلاماً أصيلاً من محاضرة بعنوان «المنهجية في قراءة كتب أهل العلم» لمعالي الشيخ / صالح بن عبد العزيز آل الشيخ يقول فيها:

«.. من المهم لطالب العلم، قبل أن يقرأ في كتب التفسير بالرأي المحمود، مثل تفسير القرطبي، أو تفسير الألوسي أو تفسير كذا وكذا من الكتب، سواء كانت من مدرسة التفاسير الفقهية أو الموسوعية، قبل أن يقرأها لا بد أن يطالع قول السلف في التفسير، لم؟

لأنه من المقرر عند أهل العلم بعامة أنه لا يجوز أن يعتقد أن صواباً في مسألة من مسائل التفسير يحجب عن الصحابة والتابعين، ويُدرِكُ هذا الصواب من بعدهم؛ لأنهم هم الذين نزل عليهم التنزيل، أعني الصحابة، فنقلوه إلى من بعدهم، فكل تفسير يُضاد -والحظ أنني أقول يُضاد ولا أقول يُخالف- تفسير السلف فإنه قطعاً غلط؛ لأنه لا يجوز أن يُعتقد أو يظن أن ثمة صواباً في التفسير يُحجب عن سلف هذه الأمة لأنه لا يجوز أن نقول أو نظن أن كلمة من القرآن جهلها الصحابة وأدركها من بعدهم، فسرّها الصحابة بتفسير ويأتي المتأخر فيفسرها بتفسير مضاد له =

عظيم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٧) ﴿ص، وثقيل: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ فَأَوْلَا نُفَيْلًا﴾ (٥) ﴿المزمل، بل بلغ الغاية في الإعجاز وشدة التأثير: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ أَلْمُوتُ﴾ (٣١) ﴿الرعد، أي لكان هذا القرآن، قاله قتادة والفراء وابن قتيبة وابن عطية وابن كثير والسَّعدي وغيرهم^(١).

ولعظمة هذا الوحي المنزل تولى بيانه وحي آخر معصوم هو الرسول ﷺ.

فإن قيل: ما الدليل على ذلك؟

فالجواب أن ذلك في القرآن في قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ - يعني القرآن - ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (٤٤) ﴿النحل، وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (٦٤) ﴿النحل. فكانت حياته كلها قولاً وفعلًا وإقراراً من حين مبعثه إلى وفاته ﷺ بياناً لهذا القرآن.

يقول الإمام الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن^(٢).

= ويكون الصواب مع المتأخر هذا قطعاً ممتنع.

ولهذا نقول من أساسيات قراءة كتب التفسير؛ أن تبدأ بقراءة التفسير بالمأثور، قبل التفسير بالرأي، أن تطالع آثار السلف في الآية، قبل أن تنظر في اجتهادات المتأخرين التي تكون مبنية على العلوم المختلفة، النحو ومفردات اللغة وأصول الفقه إلى غير ذلك.

(١) يُنظر: زاد المسير ٤/ ٣٣٠، المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣، تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٦، تفسير السعدي: (٤١٨) وغيرها.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: (٥٧).

وقد بيّنه البيان التام الذي لا لبس فيه ولا ريب كما ثبت عند أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث العرباض بن سارية قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارَهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»، وعند أحمد وغيره من حديث أبي ذر: «لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَا يَتَقَلَّبُ فِي السَّمَاءِ طَائِرٌ إِلَّا ذَكَرْنَا لَنَا مِنْهُ عِلْمًا».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْفَاضِلُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (٤٤) النحل يَتَنَاولُ هَذَا وَهَذَا، وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ كَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يَسْتَشِرُّوهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟^(١)

يعني أنه بين لهم ما يُشْكَلُ أما البين بنفسه فلا يحتاج إلى تبين.
ولذا جعل الإمام الزركشي في البرهان^(٢) في الفصل الذي عقده لأمّهات مآخذ التفسير جعل الأول من المآخذ هو: النقل عن رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وهذا هو الطراز الأول.

ثم قال: لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع فإنه كثير.
وتعقبه السيوطي في «الإتقان» فقال: الذي صح من ذلك - أي من النقل عن الرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التفسير - قليل جداً، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة^(٣).
قال مُقَيِّدُهُ: مراد الإمام السيوطي النص على التفسير لا مطلق البيان، ومثله

(١) المقدمة في أصول التفسير ص (٤١).

(٢) ١٥٦/٢ (٢).

(٣) ٤٧٣/٢ (٣).

-أي الإمام السيوطي - لا يخفى عليه ما تقدم^(١).

(١) يقول الشيخ محمد بازمول في كلام مائع له :

فإن قيل : هذه دواوين السنة بين أيدينا لا يأتي فيها تفسير القرآن آية آية ، فكيف يكون الرسول ﷺ ما مات حتى بين للصحابة جميع القرآن ؟

فالجواب : ما مات ﷺ حتى بين للصحابة جميع القرآن ، ولكن البيان يكون على طرق ؛
فالطريق الأول : البيان المباشر ، كأن يقول ﷺ : (الكوثر : نهر أعطاني الله إياه في الجنة [الترمذي: ٢٥٤٢] ، فهذا تفسير مباشر عن الرسول ﷺ لكلمة (الكوثر) : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) (الكوثر: ١) ، ومنه تفسير الظلم في قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) (الأنعام: من الآية ٨٢) ، حيث جاء جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله ﷺ عند نزول الآية ، وقالوا: يا رسول الله وأينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ ما منا إلا وقد ظلم ، من الذي لم يلبس إيمانه بظلم ؟ ففسر لهم الرسول ﷺ الظلم المراد في الآية فقال عليه الصلاة والسلام : (ألم تقرأوا قول الرجل الصالح : (يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان: من الآية ١٣)) [البخاري ومسلم] ، فبين ﷺ أن المراد بالظلم هو : الشرك ، فمعنى الآية : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك ، هذا هو المقصود. هذا النوع الأول من البيان ، وهو قليل في الأحاديث.

والطريق الثاني : بيان الرسول ﷺ للقرآن الكريم ، بالتطبيق العملي في حياة المسلمين في زمنه ، فهو ﷺ وحينما علم الناس الصلاة ؛ فسر لهم معنى قوله تعالى : (وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ) (البقرة: من الآية ٤٣) ، هو ﷺ حينما بين للناس أحكام الزكاة ؛ فسر لهم عملياً أحكام الزكاة ، وحينما صلى بالناس في مواقيت الصلوات الخمس ؛ بين لهم معنى قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ) (هود: من الآية ١١٤) ومعنى قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (الاسراء: ٧٨) ، وحينما أقام حد الزنى ، بين تطبيقاً معنى هذا الزنى ، وحينما أقام حد السرقة ؛ بين تطبيقاً معنى حد السرقة الوارد في القرآن ، ومن اقتصر على الطريق الأول في بيان الرسول ﷺ للقرآن يفوته شيء كثير ، إذ إن هذا النوع الثاني أكثر من النوع الأول.

الطريق الثالث : من طرق بيان الرسول وتفسيره للقرآن الكريم : هو ما كان يتخلق به ﷺ في نفسه ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلقه ﷺ : (كان خلقه القرآن) . فالرسول ﷺ كان في خلقه في معاملته في نفسه عليه الصلاة والسلام مفسراً ومطبقاً للقرآن الكريم .

إن رسول الله ﷺ فسر جميع القرآن بقوله وفعله وتقريره . (شرحه لمقدمة شيخ الإسلام ص ٢٢).

فإن خفي علينا تفسيره ﷺ للقرآن ؛ أخذنا بما جاء عن صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين .

فإن قيل: ما الدليل على ذلك ؟

فالجواب أن ذلك في القرآن والسنة:

ففي القرآن أثنى الله عليهم كثيراً كما في قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢٩) الفتح، وقوله: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (١٨) الفتح: ١٨، وقوله: ﴿ وَالسَّيِّفُوتُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (١٠٠) التوبة، وغيرها من الآيات.

وفي السنة ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي بردة عن أبيه قال ﷺ: النجوم أمانة للسماء فإذا ذهبَت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهبَت أتى أصحابي ما يُوعَدُونَ، وأصحابي أمانة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعَدُونَ^(١).

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قال رسول الله ﷺ: خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنيه قرنين أو ثلاثاً^(٢) ؟

والأحاديث في هذا الباب متواترة بل في أعلى درجات التواتر.

(١) مسلم (٢٥٣١).

(٢) البخاري (٢٥٠٨)، مسلم (٢٥٣٥).

فإن قيل: هذه النصوص تدل على الفضل لا على العلم بالقرآن!

فالجواب: أن العلم الحق بالقرآن هو رأس الفضائل، فمن أدركه سبق سبقاً عظيماً، ومن فاتته سبق سبقاً بعيداً.

فإن قيل: لكن هذه النصوص تدل على أفضليتهم في علم القرآن بالجملة لا بالأعيان!

قيل: وهذا هو المراد، فلا يكون الحق أبداً مناقضاً لقولهم جميعاً، موافقاً لقول غيرهم، فكل قول يناقض أقوالهم جميعاً فهو باطل قطعاً.

ثم - عقلاً - لا شك أن من عاصر نزول الوحي، وعاصر من نزل عليه الوحي، وعاصر خير من فسر وطبق الوحي - وهو خاتم المرسلين ﷺ - أعرف بمقصود كتاب الله وتفسير ما جاء به من غيره ممن بعد عهده عن زمن التنزيل.

ويكفي أن الله اختارهم لصحبة نبيه، وفي الأثر المشهور عن ابن مسعود: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم^(١).

بل إن الحاكم في مستدركه جعل تفسير الصحابي عند الشيخين البخاري ومسلم بمنزلة الحديث المرفوع^(٢).

(١) ينظر تفسير البغوي ٢٨٥ / ٤ .

(٢) يقول في المستدرک (٢٨٣ / ٢): ليعلم طالب العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند.

يقول ابن أبي حاتم: فإن قيل كيف السبيل إلى معرفة ما ذكرت من معاني كتاب الله عز وجل ومعالم دينه؟ قيل: بالآثار الصحيحة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه النجباء الألباء الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل رضي الله عنهم^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وَحِينَئِذٍ إِذَا لَمْ نَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ لِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتَصُّوا بِهَا؛ وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لَا سِيَّمَا عُلَمَائِهِمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ كَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ^(٢).

وَأَعْلَمُ الْأَمَّةِ بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ بِتَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ هُم: ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

◆ تفسير التابعين:

فإن اختلفوا أو لم يُنقل عن الصحابة في الباب شيء؛ فدونك من أخذوا عنهم من أئمة التابعين، فهم تلامذتهم وأعلم الناس بما جاء عنهم.

وهم داخلون في الحديث المتقدم المتواتر عن رسول الله ﷺ: خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ.

وهم يفهمون الكلام العربي بصرفه ونحوه وبلاغته سليقةً دون تكلف.

(١) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢، ٥.

(٢) المقدمة أصول في التفسير ص: (٥٩).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته المشهورة في التفسير:

«إِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ فَقَدْ رَجَعَ
كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ:

كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ فَإِنَّهُ كَانَ آيَةً فِي التَّفْسِيرِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ
ابْنُ صَالِحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ مِنْ
فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ أَوْقَفَهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا... وَعَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ:
رَأَيْتُ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَعَهُ الْوَاحِهُ قَالَ: فَيَقُولُ لَهُ ابْنُ
عَبَّاسٍ أَكْتُبْ حَتَّى سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ.

وَلِهَذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ.

وَكَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ.

وَعِكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ.

وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

وَمَسْرُوقِ بْنِ الْأَجْدَعِ.

وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ.

وَأَبِي الْعَالِيَةِ.

وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ.

وَقَتَادَةَ.

وَالضَّحَّاكُ بْنُ مِرَاحِمٍ.

وَعَبْرَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ»^(١).

◆ فهاتان الطبقتان هم أعلم الأمة بتفسير كلام الله عز وجل بعد رسول الله ﷺ، فما اتفقوا عليه فهو حجة، وما اختلفوا فيه لم يخرج الحق عن أقوالهم.

ثم قال رحمه الله: «فَإِنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ وَالْأُئِمَّةَ إِذَا كَانَ لَهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَوْلٌ وَجَاءَ قَوْمٌ فَسَّرُوا الْآيَةَ بِقَوْلٍ آخَرَ لِأَجْلِ مَذْهَبٍ اعْتَقَدُوهُ، وَذَلِكَ الْمَذْهَبُ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، صَارُوا مُشَارِكِينَ لِلْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ فِي مِثْلِ هَذَا، وَفِي الْجُمْلَةِ مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَى مَا يَخَالِفُ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ بَلْ مُبْتَدِعًا وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطْوُهُ»^(٢).

قال السيوطي في «الإتقان» -بعد نقله للنص السابق-: انتهى كلام ابن تيمية ملخصاً وهو نفيس جداً^(٣).

فإن قال قائل: فما لم نجد عن الصحابة والتابعين فما حكمه، أكل ما لم يأت عنهم في التفسير يكون باطلاً؟

قيل: ما ناقض أقوالهم هو الباطل، أما ما سكتوا عنه؛ فما وافق أصولهم فهو حق،

(١) مقدمة في أصول التفسير: (٦٦).

(٢) المصدر السابق: (٥٤).

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/٤٧٣.

وما خالفها فيباطل، وما زال أهل العلم من الصحابة إلى زمننا هذا يأتي المتأخر بها لم يأت به المتقدم فما يُعاب عليه ذلك، بل ما وافق الحق قبل وما خالفه رُدَّ.

فإن قلت: فما أصولهم في التفسير؟

قلت: من أجل ذلك كانت هذه الرسالة نفعني الله وإياك بها.

(فصل)

ما جاء عن رسول الله ﷺ أو الصحابة والتابعين في التفسير يكون على ثلاثة

أنواع:

◆ النوع الأول: ما ورد في فضائل الآيات أو السور.

الوقوف على ما ورد في فضائل الآية أو السورة التي يُراد تفسيرها من الأهمية
بمكان لأنه يُبين لك عن قدرها عند الذي أنزلها، فليست أم القرآن كغيرها، ولا
السورة التي تعدل ثلث القرآن كالسورة التي لم يرد فضل خاص بها.

ولذا قلما مصنف جامع للأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة إلا ويكون من
أبوابه كتاب أو أبواب في فضائل القرآن وسوره، فالبخاري في الصحيح وضع كتاباً
كاملاً في «فضائل القرآن»، وكذا مسلم في صحيحه وضع أبواباً في «فضائل القرآن»
لكنه في المطبوع ضَمَّن في كتاب «صلاة المسافرين»، وكذا الترمذي وضع كتاباً كاملاً

في «فضائل القرآن»، وغيرهم كثير.

وكذا من صَنَّف في التفسير بالمأثور يذكرون مع تفسير كل سورة ما ورد في فضلها كابن جرير والبخاري وابن كثير وغيرهم، وللسيوطي كتاب حافل جامع أسماه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، بل هناك مصنفات كثيرة مستقلة في الباب^(١)، لكن فيما ذكره يوجد الصحيح والضعيف، ومن أجود المصنفات جمعاً وتحقيقاً:

(١) «موسوعة فضائل سور وآيات القرآن» للشيخ / محمد بن رزق بن طهوني، وهو كتاب مفيد.

(٢) «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» (دراسة ونقد) لـ د. إبراهيم علي السيد. وأصله رسالة دكتوراه ثم طُبعت، وهو كافٍ في الباب.

وأجود ما وقفت عليه في الباب هو هذا الأخير، لأنه توسط في حكمه على الأحاديث والآثار في باب الفضائل، فلم يتساهل في الموضوعات والمناكير لأنها في الفضائل كحال كثير من المتقدمين ممن ليس من أهل التمييز بين المطروح والمقبول.

(١) منها:

- (أ) «فضائل القرآن» للفريابي جعفر بن محمد. مطبوع.
- (ب) «فضائل القرآن» لأبي عبيد القاسم بن سلام. مطبوع.
- (ج) «فضائل القرآن» لابن كثير. مطبوع عدة طبعات.
- (د) «فضائل القرآن العظيم»: للضياء المقدسي. مطبوع.
- (هـ) «لمحات الأنوار ونفحات الأزهار وريّ الظمآن لمعرفة ما ورد من الآثار في ثواب قاريء القرآن» للغافقي. مطبوع وهو كتاب كبير لكنه جمع ولم يفتش.

وأيضاً لم يتشدد كحال كثير ممن يشتغل بعلم التصحيح والتضعيف في هذا الزمان، ممن خالف طريقة أئمة المحدثين فأمر بطرح كل حديث ضعيف والاكتفاء بالصحيح أو الحسن، وزعم أن هذا هو المتعين لا غير، ولم يُفرّق بين الوارد في الفضائل والوارد في المسائل من الحلال والحرام، فأداه هذا إلى تغليب منهجهم أو مخالفة طريقتهم في هذا الفن الدقيق، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة قريباً بإذن الله. ومع جودة هذا الكتاب وجليل فائدته ؛ إلا أنه يؤخذ على المؤلف - وفقه الله - طريقتة في دراسة أحوال الرجال، فإنه ينقل أقوال الأئمة في الراوي ويمر عليها مروراً عاجلاً ثم يحكم بما بدا له، ولا يدرسها دراسة فقيه بهذا الفن عالم بدقائقه. والله أعلم

◆ النوع الثاني: ما ورد في أسباب النزول.

سبب النزول: هو ما نزلت الآية من أجله، شريطة أن تكون في زمن وقوعه. وهذا الشرط ذكره السيوطي^(١) حتى لا يُقال - مثلاً - إن حادثة الفيل سبب لنزول سورة الفيل، مع أن السورة نزلت من أجل التذكير بها. ويُقصد به: ذُكرُ الحوادث والقضايا التي صاحبت نزول القرآن الكريم مكانيةً كانت أو زمانيةً أو حاليةً أو عينية.

وقد تتابع المفسرون على أهمية الوقوف عليه:

قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

(١) الإتيان في علوم القرآن ١/ ٩٤.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

ومن فوائده أنه يعين على معرفة وجه الحكمة الباعثة على التشريع وهذه فائدة عزيزة يحتاجها الفقيه كثيراً، وله فوائد أخرى مبسوبة في كتب علوم القرآن فتتظر في مظانها^(١).

المصنفات فيه: وقد أفرده بالتصنيف جماعة أقدمهم ابن المديني شيخ البخاري والواحدي وغيرهما، ومن أجود المصنفات في الباب:

-
- (١) يقول شيخنا العلامة ابن عثيمين - رحمه الله - في كتابه «أصول التفسير» (ص ١١):
معرفة أسباب النزول مهمة جداً، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:
١- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحياناً، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع فينزل الوحي مبيناً له....
٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣٢) الفرقان.
٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم. مثال ذلك آية التيمم....
٤- فهم الآية على الوجه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَاءِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ البقرة: الآية ١٥٨، أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ البقرة: الآية ١٥٨، أن غاية أمر السعي بينهما أن يكون من قسم المباح، وفي «صحيح البخاري» (١٠) عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَاءِ اللَّهِ﴾ البقرة: الآية ١٥٨ إلى قوله: ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ البقرة: الآية ١٥٨. وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تخرجهم بإمسакهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِن سَعَاءِ اللَّهِ﴾ البقرة: الآية ١٥٨. اهـ

(١) «العجاب في بيان الأسباب» للحافظ ابن حجر ولم يكمله، وقد طُبِعَ مراراً.

(٢) «لُبَابُ النُّقُولِ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ» للإمام السيوطي، وقد طُبِعَ مراراً.

(٣) «الصحيح المسند من أسباب النزول» لعلاّمة اليمن الشيخ / مقبل الوادعي، وهو كتاب مفيد لطيف الحجم، طُبِعَ قديماً.

◆ النوع الثالث: التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه وأئمة التابعين.

الناظر في التفسير بالمأثور ينبغي أن يقف على أمرين اثنين:

الأمر الأول: النظر في طرق روايته.

الأمر الثاني: النظر في فهم درايته.

أما الأول: وهو النظر في طرق روايته.

فإن للتفسير طرقاً مشهورة معتبرة عند أئمة المفسرين بالآثر، وقد نظمها الشيخ محمد بن محمد عبد الله المامي اليعقوبي في منظومته «أشهر طرق التفسير» وأولها:

الحمد لله الذي قد مهّدا ★★★ لنا الطريق المستقيم وهدى

صلّى على من قد روى عنه السلف ★★★ «يحمل هذا الدين من كل خلف»

وأستعينه على تيسير ★★★ نظم لبعض طرق التفسير

عَمَّنْ به من الصحابة اشتهر ★★★ لكي يكون ناظراً على بصر

ثم ساق الطرق نظماً، وقد استقصى المشهور منها الشيخ محمد الأمين في بحثه

«تخريج أسانيد التفسير الشهيرة والحكم عليها»^(١)، وهو بحث جامع مفيد جداً لكنه بالغ في التضعيف حتى أنه لم يصح عنده من تفسير الخبر البحر ترجمان القرآن عبد الله ابن عباس إلا القليل^(٢)، وهذا أمر يدرك كل لبيب بطلانه بأدنى تأمل، وإلا فكبر على التفسير بالمأثور بل وعلى أئمة أربعاً.

◆◆ وينبغي في هذا المبحث أن يعلم أن الآثار الواردة في التفسير على نوعين:

◆ النوع الأول: آثارٌ يُراد إثبات عموم معناها لا دقائق ألفاظها.

وهذا هو الأغلب في متون التفسير، وما عداه قليل جداً إذا ما قرُن بقسيمه، ومثل هذه الآثار يتوسع أئمة المحدثين - رحمهم الله - في قبولها، ويغضون الطرف عن الضعف اليسير فيها، والأصل فيها عندهم اعتبارها والاستشهاد بها ما لم يكن فيها ما يُستنكر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَنْقُولَ فِي التَّفْسِيرِ أَكْثَرُهُ كَالْمَنْقُولِ فِي الْمَغَازِي وَالْمَلَا حِم؛ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ثَلَاثَةُ أُمُورَ لَيْسَ لَهَا إِسْنَادٌ: التَّفْسِيرُ وَالْمَلَا حِمُّ وَالْمَغَازِي، وَيُرْوَى: لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ أَيْ إِسْنَادٌ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهَا الْمَرَا سِيلُ مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَالشَّعْبِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَمُوسَى بْنُ عُقْبَةَ وَابْنُ إِسْحَاقَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ كَيْحَيِّ بْنِ سَعِيدٍ الْأُمَوِيُّ وَالْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَالْوَا قِدِي وَنَحْوِهِمْ فِي الْمَغَازِي... وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ يَعْلَمُ صِدْقُ عَامَّةِ مَا تَتَعَدَّدُ جِهَاتُهُ الْمُخْتَلِفَةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ

(١) وقد نشر في موقع «ملتقى أهل التفسير» بنفس مسمى البحث.

(٢) يقول في بحثه هذا: «ومن الملاحظ أن عامة ما يروى عن ابن عباس في التفسير ضعيف

كما ترى».

مِنَ الْمُنْقُولَاتِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهَا كَافِيًا إِمَّا لِإِرْسَالِهِ وَإِمَّا لِضَعْفِ نَاقِلِهِ ؛ لَكِنْ مِثْلُ هَذَا لَا تُضْبَطُ بِهِ الْأَلْفَاظُ وَالِدَقَائِقُ الَّتِي لَا تُعْلَمُ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ ، فَلَا يَحْتَاجُ ذَلِكَ إِلَى طَرِيقٍ يَثْبُتُ بِهَا مِثْلُ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَالِدَقَائِقِ^(٣) .

ويقول في «نقض التأسيس» - في معرض كلامه عن رواية علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس -: وأما ثبوت ألفاظه عن ابن عباس ففيها نظر... بل نقل هؤلاء شبيهه بنقل أهل المغازي والسير، وهو مما يُستشهد به ويُعتبر به، وبضم بعضه إلى بعض يصير حجة، وأما ثبوت شيء بمجرد هذا النقل عن ابن عباس، فهذا لا يكون عند أهل المعرفة بالمنقولات^(٤) .

وقد كنت وعدت سابقاً بمزيد البسط حول مسألة تشدد كثير ممن يشتغل بعلم التصحيح والتضعيف في هذا العصر في دراسة أسانيد التفسير، وأدى بهم هذا إلى الأمر بطرح كل حديث ضعيف والاكتفاء - في زعمهم - بالصحيح أو الحسن، فلم يُفرَّقوا بين الوارد في الفضائل والوارد في المسائل من الحلال والحرام، ولم يفرقوا بين إثبات عموم المعنى وإثبات دقائق الألفاظ، ولا بين ما فيه نكارة وما ليس كذلك.

وزعموا أن هذا هو المتعين لا غير، فأدّاهم هذا إلى تغليط منهج أئمة المحدثين ومخالفة طريقتهم في هذا الفن الدقيق، أو تأويل كلامهم وفعالهم بتأويلات بعيدة مستنكرة، ثم وقفت على أن هناك رسالة علمية سُجلت في هذا الموضوع^(٥)، لذا

(١) مقدمة في أصول التفسير (٣٥-٣٧) باختصار، وهو في مجموع الفتاوى ١٣/٣٤٨.

(٢) بيان تليس الجهمية ٣/٤١-٤٣

(٣) وهي في جامعة أم القرى بإشراف فضيلة الشيخ د. حاتم العوني.

سأختصر الكلام وأذكر خلاصة ما وقفت عليه في هذه المسألة^(١)، وهو أن الناظر في كتب أئمة المفسرين بالأثر سيظهر له من منهجهم ما يلي:

١ - أنك لا تكاد تجد مفسراً من أئمة المفسرين بالأثر طرح جملة من هذه الروايات بالكلية، بل قد يطرح أحدها لرأيه بعدم صحة الاعتماد عليها، ومن أشهر الروايات التي يُمثَّل بها هنا رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وعطيّة العوفي، وشبهها التي تعود أسباب ضعفها إلى سوء الحفظ ونحو ذلك، أو كتفسير الضحاك وعلي بن أبي طلحة والتي تعود أسباب ضعفها إلى الانقطاع وما في معناه.

وهذا مما يبين أنهم اعتمدوا اعتماداً واضحاً على هذه المرويات، سواءً أكانوا من المحررين فيه كالإمام الطبري وابن أبي حاتم، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير، وغيرهم أم كانوا من نَقَلِ التفسير كعبد بن حميد وابن المنذر.

وهؤلاء قد أطبقوا على روايتها بلا نكير، مع علمهم التام بما فيها من الضعف. وليس من الصواب - فيما أرى - قول من قال: إن منهج الإمام الطبري في هذه الروايات الإسناد، وإن من منهجه الصحة اعتماداً على قاعدة من أسند فقد أحالكَ.

ففي هذه المقولة غفلة واضحة عن منهج الإمام الطبري الذي اعتمد على هذه المرويات في بيان معاني كلام الله، وفي الترجيح بين أقوال المفسرين، ولم يتأخر عن

(١) ومن أجود ما وقفت عليه في هذه المسألة مقال لشيخنا فضيلة الشيخ 5. مساعد الطيار بعنوان «أسانيد التفسير» ثم تعقبات للشيخ عبد الله الجديع على المقال، وقد نشرنا جميعاً في موقع «ملتقى أهل التفسير».

ذلك إلا في مواضع قليلة جداً لا تمثّل منهجاً له في نقد أسانيد التفسير، أعني أنّ الصبغة العامة رواية هذه الآثار والاعتماد عليها في بيان كلام الله.

وقس على الإمام الطبري غيره من المفسرين الذين اعتمدوا هذه المرويات في التفسير.

وذلك أن العبرة عندهم بالمعاني ودلالاتها، لذا فإنه يقبل المعنى الصحيح وإن كان الناقل ضعيفاً؛ لذا فربما رجح الرأي المنقول بالإسناد الضعيف على الرأي المنقول بالإسناد الصحيح. والمقصود: أن الإسناد بالنسبة له كان غير معني أصلاً بالنظر والتحقيق.

٢ - أن أئمة المحدثين لهم كلام واضح بين في قبول هذه الروايات واحتمالها والاعتماد عليها؛ لأنهم يفرقون بين أسانيد الحلال والحرام وأسانيد غيرها من حيث التشديد والتساهل، ونصوصهم في ذلك واضحة، ومن ذلك:

قال يحيى القطان - فيما رواه البيهقي -: تساهلوا في التفسير عن قوم لا يوثقونهم في الحديث، ثم ذكر ليث بن أبي سليم، وجوير بن سعيد، والضحاك، ومحمد بن السائب؛ يعني: الكلبي، وقال: هؤلاء لا يحمد حديثهم، ويكتب التفسير عنهم^(١).

٣ - ولعلّ مما يبيح تساهل التعامل مع أسانيد المفسرين من جهة الإسناد أن كثيراً من روايات التفسير روايات كتب، وليست روايات تلقين وحفظ؛ لأنك لا تكاد تجد اختلافاً بين ما رواه نقلة هذه المرويات بهذه الأسانيد.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٥، وسيأتي بعد قليل تعليق الإمام البيهقي على كلمة يحيى القطان هذه.

ولذا تجدهم ينسبون التفسير إلى من رواه مدوّنًا كتفسير عطية العوفي عن ابن عباس، وتفسير السدي عن بعض أشياخه، وتفسير قتادة الذي يرويه سعيد بن أبي عروبة ومعر بن راشد، وتفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرها من صحف التفسير.

وإذا كان كثير من هذه الروايات رواية لكتاب فإن هذا يجعلها صالحة للاعتقاد، أو الاستئناس بها من حيث الجملة.

٤ - إن من تشدد في نقد أسانيد التفسير، فإن النتيجة التي سيصل إليها أن كثيراً من روايات التفسير ضعيفة، فإذا اعتمد الصحيح وأطرح الضعيف فإن الحصيلة أننا لا نجد للسلف إلا تفسيراً قليلاً، وهم العمدة في هذا الباب، فإذا كان ذلك كذلك فمن أين يؤخذ التفسير بعدهم؟!

٥ - إن التفسير له مقاييس يعرف بها عدا مقاييس الجرح والتعديل، إذ التفسير يرتبط ببيان المعنى، وإدراك المعنى يحصل من غير جهة الحكم على الإسناد، لذا فإن عرض التفسير على مجموعة من الأصول تبين صحاحه من ضعيفه، كالنظر في السياق والنظر في اللغة، والنظر في عادات القرآن والنظر في السنة... إلخ.

فمن المقرر عند جميع أهل الفنون أن طبيعة العلوم تختلف، فإثبات السنة النبوية، وإلزام الناس بها ليس كإثبات اللغة، فاللغة تثبت بما لا يثبت به الحديث، وكذا الحال في التفسير، فإنه يثبت بما لا يثبت به الحديث، والاعتماد على هذه الروايات جزء أصيل من منهجه لا ينفك عنه، ومن أطرحها فقد مسخ علم التفسير.

وقد أشار البيهقي إلى هذا الملاحظ فقال -تعليقاً علي كلمة الإمام يحيى القطان

الآئفة الذكر-: وإنما تساهلوا في أخذ التفسير عنهم لأن ما فسروا به ألفاظه تشهد لهم به لغات العرب، وإنما عملهم في ذلك الجمع والتقريب فقط.

ومن قرأ في كتب التفسير ومارس تدريسه أدرك هذا المعنى، وإلا لرأيته يقف كثيراً حتى يتبين له صحة هذه الرويات ليعتمد عليها، وفي هذه الحال أنى له أن يفسر.

وهذا دليل على أن القبول عندما وقع فالمعنى لا يؤثر فيه جرح الناقل، كموافقة لأصل اللسان مثلاً، أو موافقة للدلالات العامة للقرآن، أو لمقاصد الدين، أو لكلام آخرين وبيانهم من المفسرين، فهو معتضد بغيره، ولذا ربما رده في حال أخرى.

فالحاصل أنه لا بد من التفريق بين الاعتماد التام على منهج أهل الحديث في نقد الروايات وبين الاستفادة منه، فالصحيح أن يُستفاد منه، ويأتي وجه ذلك في حالات معينة؛ كأن يكون في التفسير المروي غرابة أو نكارة وشذوذاً ظاهراً.

ومن أمثلة ذلك ما تراه من فعل الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥: المائدة) حيث تتبع أسانيد الروايات ونقدها، لكنك تجده في مواطن أخرى يرويها ولا ينقدها، وما ذاك إلا لما في الخبر المنقول في هذه الآية من النكارة التي جعلته يتبع الإسناد، أما في غيرها فالأمر محتمل من جهة المعنى وليس فيها ما ينكر فقبله، والله أعلم^(١).

(١) وهذه النقاط التسع هي مجموع ما ارتضيته في هذه المسألة من الأجوبة السابقة، وأغلبه من إجابة الدكتور/ مساعد الطيار.

♦♦ للفائدة أذكر جملة يسيرة من أشهر أسانيد التفسير:

أ- عن ابن مسعود:

(١) ما رواه عنه أكابر تلامذته: كعلقمة والأسود بن يزيد ومسروق والشعبي والحسن البصري وأبي وائل، وعبدة بن عمرو السلماني، والربيع بن خثيم، وأبي الأحوص عوف بن مالك، ومرة الطيب، وآخرين. وكل هؤلاء ثقات أثبات.

(٢) ما أرسله عنه إبراهيم النخعي وهو لا يرسل عنه إلا ما سمعه من غير واحد من أصحاب ابن مسعود، فهو إسناد صحيح ما لم يكن فيه نكارة.

ب- عن أبي بن كعب:

له نسخة كبيرة مشهورة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه. وأبو جعفر فيه ضعف لكن يُحتمل في النسخ ما لا يُحتمل في غيرها.

ج- عن ابن عباس: وله طرق عدة من أشهرها:

(٣) طريق أبي صالح عبد الله بن صالح كاتب الليث، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وهي صحيفة علي بن أبي طلحة الهاشمي، التي رواها عن عبد الله بن صالح جمعٌ غفير من أئمة أهل الحديث.

وقد أثنى عليها واعتبر بها جمع من الأئمة كأحمد والبخاري وابن أبي حاتم، والطحاوي، وابن جرير، وأبي جعفر النحاس، والمزي، والذهبي، وابن حجر، وابن كثير، وابن الوزير، والسيوطي، وغيرهم.

لكن ينه شيخ الإسلام - في معرض كلامه عن رواية علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس - في «نقض التأسيس» فيقول: «... وأما ثبوت ألفاظه عن ابن عباس

ففيها نظر، لأن الوالي لم يسمعه من ابن عباس ولم يدركه بل هو منقطع، وإنما أخذ عن أصحابه... وليست تلك ألفاظهم بعينها، بل نقل هؤلاء شبيهه بنقل أهل المغازي والسير، وهو مما يُستشهد به ويُعتبر به، وبضم بعضه إلى بعض يصير حجة، وأما ثبوت شيءٍ بمجرد هذا النقل عن ابن عباس، فهذا لا يكون عند أهل المعرفة بالمنتقولات^(١).

- (٤) طريق قيس بن مسلم الجدي الكوفي، عن عطاء بن السائب بن مالك الكوفي، عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة عن ابن عباس. وهي طريق جيدة.
- (٥) طريق أبي معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهو صحيح.
- هذه أمثلة لأشهر طرق التفسير.

◆ النوع الثاني: آثار في التفسير يُراد الاحتجاج بها أو إثبات دقائق ألفاظها.

وهذه لابد من تمحيصها وفحصها على طريقة أئمة المحدثين ولا بد أن تدخل في تنوُّر علم العِلل، لكنها ليست بكثرة النوع الأول بل ولا تُقارب، ومن أمثلتها:

- (١) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ٤٤
- المائدة، فقد جاءت ألفاظ مختلفة عن ابن عباس في تفسير الآية فمن أراد أن يقف على الألفاظ الثابتة عنه؛ فلا بد من فحص وتمحيص.

ومن أراد أن يقف على عموم المعنى الثابت عنه، وهو أن مجرد فعل الحكم بغير ما أنزل الله كفر لا ينقل عن الملة؛ فيسعه النظر في كثرة الطرق الواردة عنه التي في

(١) سبق في ص: (٣٢).

هذا المعنى، وإن لم يتيقن أي الألفاظ الثابتة عنه.

(٢) قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ (٥٩) الأحزاب.

فقد جاءت ألفاظ عن ابن عباس في تفسير الآية، منها: ما أخرجه الطبري من طريق علي -يعني ابن أبي طلحة- عن ابن عباس قال: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب، ويبدن عينا واحدة.

وهذا مخالف للمشهور عن ابن عباس في تفسير الآية، وجاءت ألفاظ أخرى عنه -أيضاً- مشكلة من جهة معناها، فمن أراد الألفاظ فليفحص الطُّرُق.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَلَا يُدْنِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِمُعْلَوَّتِهِنَّ﴾ (٣١) النور.

جاء في بعض الروايات عن ابن عباس قال: الزينة التي يبدنها هؤلاء: قرطاهن وقلادتهن وسوارهن، فأما خلخالها ومعضداها ونحرها وشعرها، فإنه لا تبديهن إلا لزوجها.

ومعناها أنه لا يجوز للمرأة أن تبدي شعر رأسها أمام أولادها، وهذا مُشكل.

وفي الباب أمثلة أخرى أدعها خشية الإطالة، فهذه الروايات ونحوها تحتاج إلى دراسة حديشية متأنية، بخلاف ما تقدم فإن الأمر فيها أيسر، والله أعلم.

◆ الأمر الثاني: النظر في فهم درايته.

وهذا هو المقصود في المراحل السبعة المتبقية، لكنني أشير هنا إلى مسألتين

جليلتين:

◆ المسألة الأولى: أهمية الإحاطة بأقوال السلف في الآية المفسرة.

إن من أراد الإطلاع على حقيقة قول السلف في الآية فلا بد أن يقف على مجموع ما جاء عنهم أو أغلبه؛ حتى يتبين له المعنى الكلي للآية عندهم، وحتى لا يقع في خطأ الفهم الجزئي للآية، وهذا الخطأ وقع فيه بعض من اعتمد التفسير بالمأثور من المعاصرين، ولم يكتفوا بذلك بل نسبوا ذلك إلى السلف رحمهم الله.

وتتجلى أهمية العناية بجمع أقوال السلف في الآية في أن اختلاف السلف في فهم معاني القرآن قليل، وما تراه في كتب التفسير بالمأثور من كثرة الأقوال التي ظاهرها الاختلاف، إنما هو في أغلبه اختلاف تنوع لاتضاد، كما هو ظاهر بأدنى تأمل.

يقول الإمام الزركشي في «البرهان» في كلام متين له: تنبيه: (فيما يجب أن يلاحظ عند نقل أقوال المفسرين):

يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحيكه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظن من لا فهم عنده أن في ذلك اختلافاً فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر له من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل، وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالباً والمراد الجميع، فليتفطن لذلك ولا يفهم من اختلاف العبارات اختلاف المرادات كما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ★★★ وكل إلى ذاك الجمال يُشير^(١)

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٦٠.

ويقول شيخ الإسلام في مقدمته المشهورة في التفسير:

«الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ قَلِيلٌ وَخِلَافُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ أَكْثَرُ مِنْ خِلَافِهِمْ فِي التَّفْسِيرِ، وَعَالِبُ مَا يَصِحُّ عَنْهُمْ مِنَ الْخِلَافِ يَرْجِعُ إِلَى اخْتِلَافِ تَنَوُّعِ لَا اخْتِلَافِ تَضَادٍّ وَذَلِكَ صِنْفَانِ:

«أَحَدُهُمَا»: أَنْ يُعْبَرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِعِبَارَةٍ غَيْرِ عِبَارَةِ صَاحِبِهِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى فِي الْمُسَمَّى غَيْرِ الْمَعْنَى الْآخَرِ، مَعَ اتِّحَادِ الْمُسَمَّى بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمَاءِ الْمُتَكَافِئَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَرَادِفَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ.

كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ السَّيْفِ: الصَّارِمُ وَالْمُهَنْدُ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَأَسْمَاءِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسْمَاءِ الْقُرْآنِ...

«الصَّنْفُ الثَّانِي»: أَنْ يَذْكَرُ كُلُّ مِنْهُمْ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَامِّ بَعْضَ أَنْوَاعِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّمْنِيْلِ، وَتَنْبِيهِ الْمُسْتَمِعِ عَلَى النَّوعِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْحَدِّ الْمُنَاطِقِ لِلْمَحْدُودِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ.

مِثْلُ سَائِلٍ أَعْجَمِيٍّ سَأَلَ عَنْ مُسَمَّى «لَفْظِ الْخُبْزِ» فَأَرِي رَغِيْفًا وَقِيلَ لَهُ: هَذَا فَإِلْإِشَارَةٌ إِلَى نَوْعٍ هَذَا لَا إِلَى هَذَا الرَّغِيْفِ وَحْدَهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (٣٢) ﴿فَاطِر... كَقَوْلِ الْقَائِلِ: السَّابِقُ الَّذِي يُصَلِّي فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي يُصَلِّي فِي أَثْنَائِهِ، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ الَّذِي يُؤَخِّرُ الْعَصْرَ إِلَى الْإِصْفَرِارِ.

وَيَقُولُ [الْآخَرُ]: السَّابِقُ وَالْمُقْتَصِدُ وَالظَّالِمُ قَدْ ذَكَرَهُمْ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّهُ

ذَكَرَ الْمُحْسِنَ بِالصَّدَقَةِ، وَالظَّالِمَ بِأَكْلِ الرَّبَا، وَالْعَادِلَ بِالْبَيْعِ وَالنَّاسُ فِي الْأَمْوَالِ:
إِمَّا مُحْسِنٌ وَإِمَّا عَادِلٌ وَإِمَّا ظَالِمٌ؛ فَالسَّابِقُ الْمُحْسِنُ بِإِدَاءِ الْمُسْتَحَبَّاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ،
وَالظَّالِمُ أَكَلَ الرَّبَا، أَوْ مَانَعَ الزَّكَاةَ، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَلَا يَأْكُلُ
الرَّبَا.

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَقْوِيلِ، فَكُلُّ قَوْلٍ فِيهِ ذِكْرُ نَوْعٍ دَاخِلٍ فِي الْآيَةِ ذَكَرَ لِتَعْرِيفِ
الْمُسْتَمِعِ بِتَنَاوُلِ الْآيَةِ لَهُ وَتَنْبِيهِهِ بِهِ عَلَى نَظَرِهِ؛ فَإِنَّ التَّعْرِيفَ بِالْمِثَالِ قَدْ يَسْهُلُ أَكْثَرَ مِنْ
التَّعْرِيفِ بِالْحَدِّ الْمَطْلُوقِ^(١).

◆ فصل: كيف نجمع بين أقوال السلف المختلفة في الآية:

من أراد أن يقف على حقيقة قول السلف في الآية فلا بد له مما يلي:

أولاً: أن يجمعها فيقف على مجموع ما جاء عنهم أو أغلبه بقدر ما يتيسر له.

ثانياً: ينظر في الأقوال، فإن استنكر أئمة التفسير بالأثر منها شيء كابن جرير أو
البغوي أو ابن كثير أو ابن تيمية أو ابن القيم أو ابن رجب أو ابن حجر وغيرهم؛
طرح هذا المنكر، واكتفينا ببقية الآثار الواردة في الآية.


ثالثاً: هذه الآثار التي قبلها أهل العلم، إما أن تتعارض فيرجح بينها بقواعد
الترجيح بين المفسرين، وإما لا تعارض بينها فتجتمع إلى بعضها؛ ليتبين المعنى الكلي
للآية عندهم، وهذا له فائدة كبرى في إدراك المعاني الكلية للآية كما لا يخفى.

يقول شيخ الإسلام: «وَجُمِعَ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا -أَيِ فِي التَّفْسِيرِ- نَافِعٌ
جِدًّا؛ فَإِنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدَلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنْ عِبَارَةٍ أَوْ عِبَارَتَيْنِ وَمَعَ هَذَا فَلَا بُدَّ

(١) مقدمة في أصول التفسير (١٧-٢٣) باختصار.

مِنْ اخْتِلَافٍ مُحَقَّقٍ بَيْنَهُمْ كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْأَحْكَامِ»^(١).

◆◆ وبالمثال يتضح المقال:

◆ **المثال الأول:** يقول تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾  ص.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير الـ (عَسَاق)، وقد لخصها ابن الجوزي في زاد المسير فقال: وفي (الغساق) أربعة أقوال:

أحدها: الزمهرير، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال مجاهد: الغساق لا يستطيعون أن يذوقوه من برده.

والثاني: أنه ما يجري من صديد أهل النار، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عطية، وقتادة^(٢)، وابن زيد.

والثالث: أن الغساق عين في جهنم يسيل إليها حُمّة كل ذات حمّة من حية أو عقرب أو غيرها، فيستنقع، فيؤثي بالآدمي فيغمس فيها غمسة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويجر لحمه جر الرجل ثوبه، قاله كعب.

والرابع: أنه ما يسيل من دموعهم، قاله السدي. اهـ^(٣).

قال في «فتح القدير» -بعد قول السدي-: وكذا قال ابن زيد^(٤).

وهناك قول خامس لم يذكره ابن الجوزي: وهو أن الغساق هو المتنن، ذكره ابن

(١) مقدمة في أصول التفسير (٣٠).

(٢) قال قتادة: هو ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم.

فتح القدير ٤/ ٤٤١.

(٣) زاد المسير ٧/ ١٥٠.

(٤) ٤/ ٤٤١، وعزاه لابن زيد أيضاً القرطبي في تفسيره.

جرير عن عبد الله بن بريدة، وبه قال أبو عبيدة وغيره.

والتأمل في هذه الأقوال عن السلف -رحمهم الله- يجد أنها تختلف لكن لا تتعارض فالغساق شراب من شراب أهل النار موصوف بأنه:

(١) هو ما يجري من صديد أهل النار، من جروحهم وفروجهم ودموعهم، وغير ذلك.

(٢) وهذا الصديد متن في رائحته شديد التن.

(٣) وهو يجري فيجتمع في عين في جهنم تسمى الغساق، ويسيل إليها أيضاً حمة -أي سُم- كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غيرها، فيغمس فيها أهل النار.

(٤) وهو -أيضاً- حال خروجه من أجساد هؤلاء الخاسرين، وحال اجتماعه في هذه العين، وحال غمسهم فيها؛ هو بارد زمهرير يقتل من شدة برده. أعاذنا الله من ذلك.

ولذا قال ابن كثير وهو يجمع بين هذه الأقوال:

والغساق هو: ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطيع من برده ولا يواجهه من ننته^(٥).

◆ **المثال الثاني:** قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ ﴿٤٣﴾ إبراهيم.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير ال (الإهطاع)، وقد لخصها ابن الجوزي في زاد المسير فقال: فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الإهطاع النظر من غير أن يطرف الناظر، رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد والضحاك وأبو الضحى.

والثاني: أنه الإسراع، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وأبو عبيدة، وقال

(١) تفسيره ٤/٤٦٥.

ابن قتيبة: يقال أھطع البعير في سيرة واستھطع إذا أسرع.

والثالث: أن المھطع الذي لا يرفع رأسه، قاله ابن زيد.^(١)

والتحقيق أنها تشملها جميعاً كما قرره غير واحد من المحققين وسيأتي بإذن الله.

◆ **المثال الثالث:** قوله تعالى: ﴿مُتَكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حَسَانٍ﴾ ﴿٧٦﴾ الرحمن.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير قوله (رَفْرَفٍ)، وأشهرها قولان:

(١) أنها فضول المحابس^(٢) والفرش والبسط، جاء ذلك عن علي بن أبي طالب،

و ابن عباس، ومجاهد، والضحاك رحمهم وغيرهم.

(٢) أنها رياض الجنة، قال سعيد بن جبیر: الرفرف رياض الجنة خضر مخضبة.

ويروى ذلك عن ابن عباس، وبه قال أبو إسحاق.

والتحقيق أنها تشمل هذا وذاك كما سيأتي بإذن الله.

◆◆ **المسألة الثانية :** مقارنة ما ورد عن السلف من التفسير بما جاء في كتب اللغة
المصحَّحة كتهذيب الأزهري والصَّحاح للجوهري ونحوهما.

من المتقرر أنه لا بد من وجود ارتباط بين اللفظ والمعنى في التفسير بل في كل كلام مفيد، لذا تولى الله - عز وجل - بنفسه بل وكرر بيان هذه العلاقة بين القرآن وبين لغة الضاد ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ويكفي في ذلك أن الله عز وجل أنزل في ذلك عشر آيات محكمات من آيات

٣٧٠ / ٤ (٢).

(٣) المحابس: هي المفارش التي تبسط على وجه الفراش للنوم يقال لما زاد عن الفراش

منها رفرف.

هذا الكتاب العظيم.

يقول ابن قتيبة: القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقْن، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة وماتت الخواطر^(١).

وقال الإمام مالك: لا أوتى برجلٍ غير عالمٍ بلغة العرب يفسّر كتاب الله إلا جعلته نكالا^(٢).

فإذا كان كذلك فإن بُعد الناس - خصوصاً في هذا العصر - عن لغة العرب أورثهم عدم فهم لكلام السلف في التفسير، فتارة يستغربونه، وفي أخرى يطرحونه، ومرة يستدلون به على غير مراده وغير ذلك كثير.

ولذا من أراد أن يتضح له المعنى الكلي للآية فلا بد أن يفهم ما ورد عن السلف، ولن يفهم مرادهم فهماً جلياً - لا لبس فيه - إلا بالنظر في معاني الكلمات من كتب اللغة الموثوقة.

وهذا لا يلزم في كل آية ولا في كل كلمة، وإنما فيها يحتاج إلى ذلك منها.

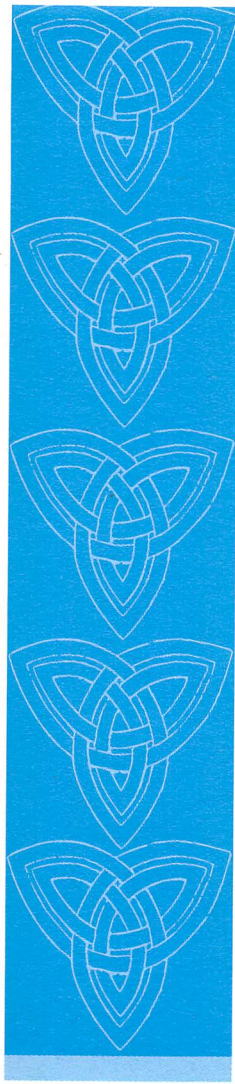
فإن قلت فما ضابط ذلك ؟

فأقول: هذا ما من أجله كُتبت المرحلة الثانية، والله وحده أعلم.

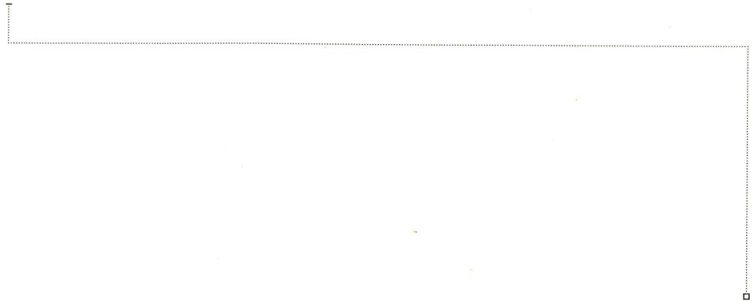


(١) تأويل مشكل القرآن (٦٨).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٥/٢٣٢).



المرحلة الثانية



إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية ومقارنته بما جاء عن السلف،

ثم الجمع بينهما لتحديد المعنى الكامل والصحيح للكلمة نفسها.

البدء بهذا الأمر قبل ما نستقبل من المراحل من الأهمية بمكان، بل لا يمكن أن يتضح معنى الآية بكل دلالاته إلا بها، وذلك أن المفردة هي الأصل الذي يُبنى عليه ما بعده.

◆ يقول الإمام الزركشي: فصل فيما يجب على المفسر البداءة به:

الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه، قالوا: وليس ذلك في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع وغيره؛ وهو كما قالوا؛ لأن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته^(١).

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٧٣.

وعدم فهم دلالة الكلمة يؤدي إلى خطأ كبير في تأويل القرآن، ولذا لما لم يدر عمرو بن عبّيد المعتزلي^(١) ما هو (الوعد) عند العرب؛ ظن أن إخلاف الوعد والوعيد واحد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (٦) الروم، فزعم أنه لا يجوز لله عز وجل أن يخلف وعيده، فإذا توعد الله أحداً كما في قوله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً﴾ (١) الهجزة، أو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣) النور، فلا بد أن يعذبهم ولا يعفو عنهم وإلا كان ذلك كذباً وإخلافاً للوعد.

كذا قال، وهذا غلط في فهم الفرق بين (الوعد) و (الوعيد) في اللغة التي نزل بها القرآن، فالله لا يخلف وعده وهو أن يعده بالخير، أما الوعيد وهو الإيعاد بالعقوبة فإخلافه ممدوح ويسمونه عفواً وصفحاً لاخلفاً وكذباً، والأمثلة في هذا المعنى كثيرة.

(١) في تاريخ بغداد (١٢/ ١٧٥) قال الأصمعي: «جاء عمرو بن عبّيد إلى أبي عمرو بن العلاء فقال: يا أبا عمرو يخلف الله ما وعده؟ قال: لا، قال: أفرأيت من أوعده الله على عمله عقاباً أيخلف الله وعده عليه؟

فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أتيت يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد. إن العرب لا تعد عاراً ولا خُلُفاً أن تعد شراً، ثم لا تفعله ترى ذلك كرماً وفضلاً، وإننا الخلف أن تعد خيراً ثم لا تفعله، قال: فأوجدني هذا في كلام العرب، قال: نعم، أما سمعت إلى قول الأول:

ولا يرهّب ابن العم ما عشت سطوتي ولا أخشني من صولة المتهدد
وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي»
قلت: ويؤيده خبر كعب بن زهير حين أوعده رسول الله ﷺ فقال:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

◆◆ (فصل): الناظر في كلمات القرآن - من جهة الوضوح وعدمه - يمكنه جعلها

على ثلاث مراتب:

◆ **المرتبة الأولى:** كلمات مشهورة واضحة المعنى والدلالة، مثل: الناس، الشمس،

القمر، البحر، الشجر، السمع، البصر، النور، اليتيم، الفقير.

◆ **المرتبة الثانية:** كلمات متداولة واضحة المعنى الظاهر، لكن من يتأمل هذه الكلمات

في كتب التفسير ودواوين اللغة؛ سيجد أنها تنطوي على عدد من المعاني البديعة، التي لم تخطر له على بال، وهي معاني صحيحة دلَّ عليها السياق، وقد جاء التصريح بها أو التلميح عنها في كتب التفسير بالمأثور، لكن لعدم ورود احتمال هذه المعاني أصالةً في خاطره؛ فإن الناظر في تفسير السلف لا يتأمل هذه المعاني في كلامهم، بل قد يُنكر على المحققين من المتأخرين الخوض في هذه المسائل، ومن جهل شيئاً عاداه.

ومن أمثلة هذه الكلمات: تؤزهم، حرثكم، وشدنا أسرهم، فأجاءها المخاض، كُورَت، كُشِطَت، كالدهان، الصمد، التغابن، رفرَف، عبقرِي، أحقاباً....

وهذا النوع من الكلمات هي التي سنقف عندها طويلاً في هذه الرسالة.

◆ **المرتبة الثالثة:** كلمات غامضة بالنسبة لكثير من الناس، لا يُدرك معناها إلا

بمراجعة كتب التفسير واللغة، مثل: انكدرت، مقمحون، زراي، الوتين، حمّة، الترائب، زنيم، أبّا، قضا، أمشاج، جدُّ ربنا، سائحات، لكنود،.....

ومن هذه الكلمات -بعد المراجعة- ما يُلحق بالمرتبة الأولى، ومنها ما يُلحق

بالثانية.

◆◆ إذا تبين هذا فيبقى عندنا سؤال كبير، وهو كيف يصل طالب فهم كتاب الله تعالى إلى معرفة دلالة الكلمة ؟

والجواب: أن معرفة دلالة الكلمة يكون بعرض الكلمات التي تتدبر آياتها على المراتب الثلاث السابقة، ومعرفة درجتها من الوضوح والغموض، فعندما تمر بكلمة في كتاب الله، وتدرك أن فيها شيئاً من الغموض، أو أنها توحى بأن البحث فيها قد يفيد في معرفة دلالة هذه الكلمة بشكل أكبر وأوضح ؛ فعندها نرجع إلى المصادر التي تساعد في بيان هذه الدلالة إن وجدت، وهذه المصادر كثيرة متنوعة، لكنني سأحصر البحث في مصادر محددة تُغني الباحث في مراحلها الأولى، فأقول:

نحتاج لفهم كلمات الكتاب العزيز فهماً شبيهاً تام إلى ثلاثة مراجع:

◆ كتاب في التفسير بالمأثور (تفسير ابن جرير أو ابن كثير أو الدر المنثور ونحوها).

◆ تفسير لغوي بلاغي (تفسير التحرير والتنوير أو أبي السعود، البيضاوي ونحوها).

◆ كتاب في اللغة (الصحاح للجوهري، مختار الصحاح، مفردات الراغب الأصفهاني).

مع الحذر من الأخطاء العقدية خصوصاً في مسائل الأسماء والصفات لله عز وجل في «التحرير والتنوير»، وأبي السعود، والبيضاوي، ومفردات الراغب، وإن أشكل عليك أمر فقارن بتفسير السعدي أو بكتاب «أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين» للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس.

◆ أما عن كيفية الاستفادة من هذه المصادر ؟ فعلى النحو التالي:

عندما نمر بكلمة في كتاب الله على الصفة السابقة ؛ فإننا نعود أولاً: إلى كتاب

في التفسير بالمأثور، وسنجد أن المفسرين بالمأثور يأتون بكلام السلف في بيان المراد بهذه الكلمة، فدقق النظر فيه، ثم انظر -لزاماً- كتاباً في التفسير اللغوي البلاغي فقد يذكر من المعاني ما يوضح كلام السلف، وينبه إلى ما كان خافياً عليك منه، وقد يضيف معاني صحيحة لم تأت صريحة فيما سبق، ثم قارن ذلك بكتاب في اللغة وليكن «الصحاح» مثلاً، وهذه أمثلة توضح ما ذكر -أبدأها بالأيسر فهماً-:

◆ المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾

مريم.

كثير من الناس يفهم من الآية فهماً سريعاً، وهو أن مريم عليها السلام ابتعدت وخرجت عن قومها لتتفرغ لعبادة ربها أو لحاجة لها ونحو ذلك، وهذا فهم صحيح؛ لكن الآية تدل على أبلغ من هذا، وذلك أنا إذا تأملنا كلمة (انتبذت) نجد أن فيها معنى زائداً يدل على أن خروج مريم ليس خروجاً عادياً، بل هو خروج شديد فيه طرح واعتزال ونبذ لقومها، وكأن أهلها وعشيرتها وقومها شيء منبوذ غير مرغوب فيه بالنسبة لها، أخذته وألقته بشدة بعيداً عنها تخلصاً منه، وهذا يفهم من تأمل الكلمة، وله أمثلة كثيرة في كتاب الله.

◆ المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾

مريم.

لننظر أولاً في تفسير بعض السلف:

◆ قال مجاهد: عتياً، يعني نحول العظم.

وقال ابن زيد: العتي الذي قد عتا عن الولد فيما يرى نفسه لا يولد له.

ثم لننظر في أصل الكلمة «عتياً»: هي مأخوذة من العُتُو وهو كلٌ مبالغ فيه مما

يُذَمُّ أو يُعَاب، ويتجلى الأمر أكثر عندما نعود — مثلاً — إلى كتاب «التحرير والتنوير» (٧٠ / ٨) فيبين أن كلمة «عُتِيَا» و «عُتِيَا» «تطلق على الشيء اليابس، إذا فقد وقع لذكرها عليه السلام كِبَرٌ في السن مبالغ فيه، حتى انحلت منه عظامه، ويبست يَبُوساً شديداً.

نخلص من هذا، أن ذكرها تضرع إلى ربه بضعفه الشديد، حيث إنه (قد كبرت سنه، وبلغ به الكبر مبلغاً يبس معه العظم)، فأصبح لا رطوبة — مطلقاً — في بدنه ينتج منها ماء الولد، فكيف له مع ذلك بالولد ؟!

◆ **المثال الثالث: قوله تعالى:** ﴿ فَأَجَّاهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ﴿٢٣﴾ مريم.

لو تأملنا كلمة «فأجَّاهَا» لوجدنا أنها ليست (جاء)، وليست (أجأ) بل هي كلمة دَلَّت على ما تدل عليه هاتين الكلمتين جميعاً بأبلغ وأوجز عبارة.

بيان ذلك: أن أصل (أجاء) هو (جاء)، ولو وردت الكلمة هكذا (جاء) لكان المعنى أن المخاض جاءها، وهذا ليس إلا جزء من المعنى فقط، فلما دخلت عليها همزة التعدية أضافت لها معنى آخر غير المجيء، وهو أن المخاض لما جاءها جاء بها إلى جذع النخلة، كالفرق بين: لجأ وألجأ، وذهب وأذهب، نام وأنام، سمع وأسمع، وغيرها كثير.

وهذا المجيء لم يكن على سبيل الاختيار وإنما على سبيل الاضرار كما دل عليه السياق.

◆ **والمراد أن المخاض لما جاءها ألجأها إلى جذع النخلة،** ولذا جاء تفسير السلف لـ (فأجَّاهَا) أي (ألجأها) وهذا من عظيم إدراكهم لمعاني القرآن.

◆ المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ (٨٣)

مريم.

لننظر أولاً في تفسير بعض السلف:

فعن ابن عباس قال: تغريهم إغراء.

وعن قتادة قال: تزعجهم إزعاجاً في معصية الله.

وعندما نرجع إلى الصّحاح في مادة «أز» يقول لك:

الأزيز: صوت الرعد، وصوت غليان القدر... والأز: التهيج والإغراء...

والأز: الاختلاط، وقد أَرَزْتُ الشيءَ أَوْزُهُ أَزًّا، إذا ضُمَّتْ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

ف نجد أنها تُطلق على أمور منها:

١- الصوت الشديد المضطرب.

٢- التهيج والإغراء.

٣- الاختلاط. وهناك معنى رابع ذكره صاحب «اللسان»: وهو الامتلاء، تقول

العرب: أَرَّ المجلس، إذا امتلأ و غَصَّ بالناس.

وهذه المعاني كلها مناسبة للسياق، وبتأملها يتجلى سرُّ اختيار هذه الكلمة،

فالشياطين:

أولاً: تختلط بالكافرين والفاستين وتتمكن منهم.

ثانياً: توسوس لهم وسوسة شديدة مزعجة؛ فتملأ قلوبهم بشبهاتهم وشهواتهم،

ويكون هذا الصوت المزعج سبباً في منعهم من سماع ما يعارضها، فلا يكون فيها

حل لغيرهم.

ثالثاً: تهيجهم وتدفعهم دفعاً شديداً إلى المعاصي، بل وتقويهم وتعينهم عليها عياداً بالله^(١).

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿مُتَكِبِينَ عَلَى رَفْرِفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (٧٦)

الرحمن.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير قوله ﴿رَفْرِفٍ﴾، وأشهرها قولان:

١- أنها فضول المحابس^(٢)، والبسط، جاء ذلك عن علي وابن عباس ومجاهد وغيرهم.

٢- أنها رياض الجنة، قال ابن جبير: الرفرف رياض الجنة، وبه قال أبو إسحاق.

وهناك أقوال أخرى في المعنى المراد بـ (الرفرف) في الآية الكريمة، أدعها لأبين مأخذ الأقوال السابقة، وأن معناها متقارب، ثم أيها أقرب إلى مراد الله عز وجل؟
قال في «اللسان»: الرفرف كِسْرُ [أي ذيل] الخباء ونحوه... وهو أيضاً خرقة تخاط في أسفل السراشق والفسطاط ونحوه، وقال: والرفرف الشجر الناعم

(١) إذا تبين لك ذلك فلا تعجب إن بلغك عن بعض شياطين الإنس أنه أوتي من القوة والتفنن في باطله أضعافاً مضاعفة، كحال بعض الظلمة، وقد ذكر لي أن بعضهم يظل رافعاً صوته بالمتكر من القول، واقفاً على قدميه، يهزُّ أردافه ست أو سبع ساعات أو أكثر من ذلك، فهذا من أزر وإعانة الشياطين له، أعاذ نا الله وذرياتنا وأحبابنا وإخواننا من ذلك.

(٢) المحابس: هي المفارش التي تبسط على وجه الفراش للنوم يُقال لما زاد عن الفراش منها رفرف.

المسترسل....

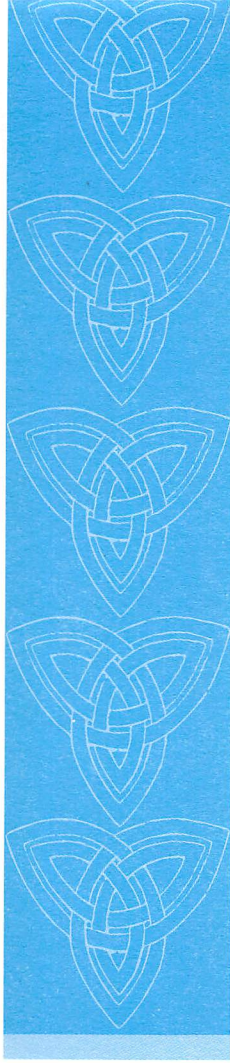
وأيضاً هناك أقوال أخرى في كتب اللغة لا أطيل بذكرها، ولكن بالتأمل فيها سبق ندرك أن (الرَّفَرَف) يُطلق على ما كان طرفاً أو فضلة في شيء، كالمسترسل من الخيام والبسط والأشجار، أو ساحات وحدائق القصور والمنازل، أو حركة أطراف جناحي الطائر، ومنه في هذا العصر «رفرف السيارة» ونحو ذلك.

◆ نخلص من هذا: أن المقصود بـ (رَفَرَف خُضِر) ما يلي:

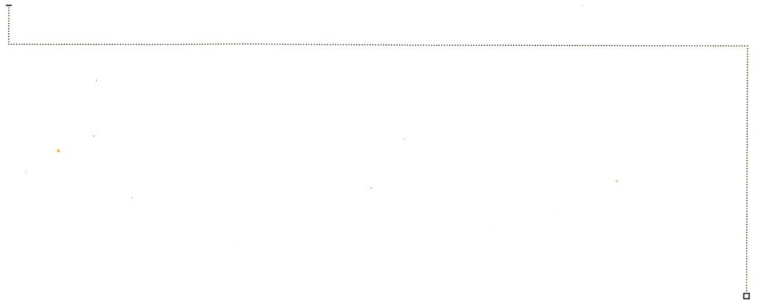
- (١) ساحات وأفنية قصور أهل الجنة، فهي تَرَف وتتهز خُضرة ونضرة، حتى أن أهل الجنة يتكئون على ما استرسل من أشجارها.
- (٢) أطراف البُسُط والفرُش المنثورة في بساتين ومجالس أهل الجنة.
- (٣) أسرة أهل الجنة، لأن الرفرفة تُطلق أيضاً على المفارش التي تُوضع فوق الأسرة، ويكون لها ما يتدلى من على جوانبها.

إذا تبين هذا؛ فبقارن ذلك بما تقدم في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٥٤) الرحمن والله أعلم.





المرحلة الثالثة



المرحلة الثالثة معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات.

هذا الأمر من الأهمية بمكان، ذلك أن كلمات القرآن العظيم إن فهم معناها ودلالاتها، بقي معرفة دلالة (حروف المعاني) التي تربط بينها، ومعرفة دلالة هذه الحروف له سر عجيب في فهم معاني القرآن فهماً دقيقاً واسعاً، يتبين معه سر بديع عظمة كتاب الله، وسيجد من تذوق دلالة هذه الحروف الفرق الشاسع بين فهمه لآيات الكتاب قبل و بعد، وسيقع في قلبه من توقير وتعظيم كتاب الله ما لم يخطر له على بال، وأكبر من هذا؛ أن الخطأ في تحديد المعنى المراد للحرف في هذا السياق المعين قد يقلب المعنى المراد تماماً، أو يُضعف فهمك له، أو يُخلِّب بلاغة وفصاحة هذا الكتاب المعجز.

◆ ومن شواهد ذلك ما حكاه الخطابي في إعجاز القرآن^(١):

قال رجل: يا أبا العالية قوله تعالى في كتابه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ

(١) (ص ٣٩).

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥٠﴾ الماعون، ما هذا السهو ؟

قال: الذي لا يدري عن كم ينصرف عن شفع أو وتر ؟

قال الحسن: مه يا أبا العالية، ليس كذلك، بل الذين سهو عن ميقاتها حتى

تفوتهم، ألا ترى قوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ الماعون

ولذا أثر عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال «عن صلاتهم ساهون»،

ولم يقل «في صلاتهم ساهون»^(١).

وقد تقدم الكلام أن الحروف في لغة العرب تنقسم إلى قسمين: حروف مباني

وحروف معاني، وأن حروف المعاني هي الحروف التي تدل على معنى في غيرها،

وتأتي رابطة بين الكلمات، لتعطي دلالة معينة يقصدها المتحدث، وتسمى أيضاً

حروف الربط، مثل: لام الاختصاص في قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾، ودلالة

حرف «على» على الظرفية مع الاستعلاء في قوله تعالى ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ

غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا...﴾ وسيأتي بيان ذلك بشيء من التفصيل إن شاء الله^(٢).

ومع كثرة المؤلفات القديمة والحديثة في حروف المعاني إلا أنني سأختار مرجعاً

واحداً فقط -تيسيراً وتسهيلاً- وهو «معجم حروف المعاني في القرآن الكريم»، لأن

المقصود هنا الوصول إلى المعرفة الأولية لمعاني هذه الحروف، لا التحقيق والتدقيق في

المضائق، ولتوضيح ذلك، فإن معرفة دلالة حروف المعاني على ثلاث درجات:

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥٥.

(١) وليست للعلو المجرد بمعنى «على» كما سيأتي بيانه.

◆ الدرجة الأولى: إدراك المعاني المشهورة لكل حرف، مثل:

«ال»: في كتاب الله لها معنيان مشهوران عهدية أو جنسية، ولكل منهما أنواع.

«الفاء»: لها عدة معاني: السببية، الفصيحة، العاطفة، الجوابية،...

«الباء»: لها عدة معاني: الإلصاق، التبعية، السببية، القسم،...

«في»: أصل معانيها الظرفية، وتأتي للتعليل، والاستعلاء، والمقايضة،...

وهكذا... وهذا يكون بالمطالعة كما يكون أكثر بالممارسة.

◆ الدرجة الثانية: إدراك المعنى المراد -تقريباً- لكل حرف بحسب موضعه، مثل:

«ال»: في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جنسية تفيد

الاستغراق.

«الفاء»: في قوله ﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ فصيحة -تفصح عن محذوف- أي فضرب

فانبجست.

«الباء»: في قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ للاستعانة.

«في»: في قوله تعالى ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ العلو مع الظرفية^(١).

«عن»: في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ﴾ للمجازة.

◆ الدرجة الثالثة: التحقيق عند اختلاف أقوال المحققين في المضايق لكي يُحمل

الكلام على أفصح الوجوه بلاغة وحكماً وإحكاماً، ومن أمثلة ذلك:

- دلالة التعاقب بين «الواو» و «الفاء» في أوائل سورتي المرسلات والنازعات.

(١) وليست للعلو المجرد بمعنى «على» كما سيأتي بيانه.

- دلالة «الفاء» في قوله تعالى: ﴿...فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ...﴾.

- دلالة «في» في قوله تعالى: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ...﴾.

والذي نطمح إليه في هذه الرسالة ؛ هو إتقان الدرجة الثانية، أما الثالثة فدرجة تحتاج - بعد ما سبق - إلى كثير من الممارسة والمداصلة مع أهل الفن.

وينبغي أن يُعلم أن الوقوف على معنى أو معاني الكلمة أسهل بكثير من الوقوف على دلالة حروف المعاني في كل موضع بحسبه، لا أقول ذلك تشبيطاً، لكن حفزاً للأذهان، لتستعد لأمر قد يشق عليها في بادئ الأمر، ذلك أن عدداً ليس بالقليل من هذه الحروف لها عدد كبير من المعاني المتغايرة حيناً والمتداخلة حيناً آخر، ولا يحدد المعنى المراد إلا السياق، وحمل الكلام على أفصح الوجوه، مع عدم مخالفة ما تقرر في تفسير السلف الصالح لهذه الآيات.

◆ جدول يوضح أشهر المعاني لجملة من هذه الحروف:

الأمثلة	المعاني	الأداة
ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. الحمد لله رب العالمين، قل أعوذ برب الناس. وجعلنا من الماء كل شيء حي....	للتعريف: (عهدية) (جنسية) (للمهية)	«ال»

<p>وهو معنى لا يكاد يفارقها، مثل: الذين يؤمنون بالغيب. فليأتوا بشر كائهم، فليأت مستمعهم بسلطان مبین. فذكر فما أنت بنعمة ربك... اقرأ باسمك ربك.... وأقسموا بالله جهد أيمانهم، حتى توارت بالحجاب.</p>	<p>أصل معانيها الإلصاق وتأتي: للمصاحبة للسببية أو الاستعانة للقسمة، للظرفية</p>	<p>«الباء»</p>
<p>سيذكر من يخشى، سيجعل الله بعد عسر يسرا</p>	<p>للتنفيس في الزمن القريب</p>	<p>«السين»</p>
<p>ولسوف يعطيك ربك فترضى، سوف أستغفر لكم ربي.</p>	<p>أبلغ من السين في التنفيس</p>	<p>«سوف»</p>
<p>وهو معنى لا يكاد يفارقها، مثل: إنها عليهم مؤصدة. فخرج على قومه من المحراب، ودخل المدينة على حين غفلة..</p>	<p>أصل معانيها الاستعلاء وتأتي: للغاية، الظرفية</p>	<p>«على»</p>
<p>وهو معنى لا يكاد يفارقها، مثل: ربنا أكشف عنا العذاب. وما نحن بتاركى ألهتنا عن قولك.</p>	<p>أصل معانيها المجاوزة وتأتي: سببية</p>	<p>«عن»</p>
<p>فجعله غثاء أحوى، فجعلهم كعصف مأكول. فمهل الكافرين أمهلهم... وربك فكبر وثبابك فطهر... إذا جاء نصر... فسيح بحمد ربك...</p>	<p>عاطفة (للتعقيب، السببية) فصيحة، توكيدية جوابية</p>	<p>«الفاء»</p>

«في»	أصل معانيها الظرفية وتأتي: للتعليل، الاستعلاء المقايسة	وهو معنى لا يكاد يفارقها، مثل: فيها عين جارية. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم...، إذ الاغلال في أعناقهم... فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.
«قد»	مع الماضي للتحقيق والتقريب مع المضارع للتقليل أو التكثير	قد سمع الله قول التي...، قد أفلح من زكاها. وهي في القرآن في ثمانية مواضع كلها عند التحقيق للتكثير منها: قد يعلم ما أنتم عليه.. لم تؤذوني وقد تعلمون.
«اللام الجارة»	أصل معانيها الاختصاص وتأتي: للتصيرة، العلة الصلة	وهو معنى لا يكاد يفارقها، مثل: إنها الصدقات للفقراء.. ولذلك خلقهم، ولقد يسرنا القرآن للذكر.. وإذ قال ربك للملائكة..
«اللامات الأخرى»	لام التعليل، الصيرورة، التوكيد (الابتدائية، المرحلة، الجمود، الموطئة للقسم، جواب القسم، جواب لو ولولا).	ليبلوني أشكر أم أكفر، فالتقطه آل فرعون ليكون.. وللآخرة خير لك من الأولى، إن الإنسان لفي خسر، وما كان الله ليطلعكم على الغيب.. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم...، لتركن طبقاً عن طبق.. لو نشاء لجعلناه حطاماً، ولولا أن يكون الناس... لجعلنا...
«ما الحرفية»	نافية، مصدرية، مؤكدة (كافة، غير كافة)	ما هذا بشراً، ما دمت حياً.. إنما الله إله واحد، وإذا ما غضبوا هم يغفرون.

«ما» الاسمية»	شرطية، موصولة، استفهامية، تعجبية.	تفيدان العموم: وما تفعلوا من خير...، فانكحوا ما طاب... الحاقة ما الحاقة، فما أصبرهم على النار.
«مِنْ»	أصل معانيها ابتداء الغاية، وتأتي للتبعيض، والتبيين، والتوكيد، والسببية....	وهو معنى لا يكاد يفارقها، مثل: تجري من تحتها الأنهار. ومن الليل فاسجد له...، من الجنة والناس. وقلنا ما نزل الله من شيء، مما خطيئاتهم أغرقوا.

◆◆ بقي كيفية الوصول إلى معرفة دلالة حروف المعاني في الآية ؟

سبق أنا اخترنا مرجعاً واحداً فقط هو «معجم حروف المعاني في القرآن الكريم»
مع الجدول السابق، فإذا مرَّ بك حرف من هذه الحروف في القرآن الكريم، فاسلك
الخطوات التالية:

أولاً: انظر الجدول السابق، وتأمل المعاني المشهورة للحرف.

ثانياً: راجع هذه المعاني في الكتاب السابق بشكل أوسع.

ثالثاً: تأمل في المعنى الذي اختاره المؤلف، وافهم سبب اختياره، وقد تحتاج مع
هذه الخطوات إلى من يذلل لك بعض الصعوبات.

◆◆ أمثلة توضح ما سبق:

◆ **المثال الأول:** قوله تعالى: ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (٧١) طه.

لم قال تعالى (في) ولم يقل (على)، مع أن الظاهر إرادة التصليب والتعليق ؟

نجد في كثير من كتب التفسير أن (في) هنا بمعنى (على)، وهذا وإن كان مشهوراً في كتب التفسير، وأيضاً ليس هو بخطأ؛ لكنه تفسير لجزء من المعنى، لأنه لو كان الأمر كما ذكروه لقال (على) ولم يُقل (في)، لذا فهو ليس بجيد إذا أُريد إيضاح المعنى الكامل للآية.

وإنما المراد -والله أعلم- هو تضمين فعل (صلب) معنى (أدخل) ففرعون من شدة غيظه عليهم؛ هددهم بأنه سيصلبهم تصليباً شديداً، حتى كأن أجسادهم من شدة التصليب ستحفر في وسط الجذوع، فكأنها في الجذع لا عليه، فحرف (في) دل على العلو مع الظرفية، وهذا المعنى لا يؤديه حرف (على) كما هو ظاهر.

◆ **المثال الثاني: قوله تعالى:** ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (٤٧) مريم.

السين الأولى أتت هنا للدلالة على المستقبل القريب، أي أن إبراهيم عليه السلام وعد أباه أنه سيستغفر له في الزمن القريب، ولو قال (سوف أستغفر لك ربي) لدل على زمن أبعد، وهو خلاف مراد إبراهيم عليه السلام الذي بلغ من إحسانه بأبيه وحرصه على هدايته ما بلغ، مع شدة ما لقيه منه من وعيد وطرود وتهديد وغير ذلك، فهذه السين إشارة إلى نوع من الكمالات الخلقية التي اختص الله بها هذا النبي الكريم ومن وفق من عباده الصالحين.

وقريب منه ما قاله عطاء الخراساني -في المقارنة التي عقدها بين استغفار يوسف ويعقوب عليهم السلام- قال: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ، ألم تر قول يوسف عليه السلام: ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وقال

يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾^(١).

◆ المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ الْجُذْعَ النَّخْلَةَ...﴾ مريم.

الهز تحريك الشيء، وفعله يتعدى بنفسه فنقول: هزَّ الرمح أو الشجرة ونحو ذلك، وفي هذه الآية عداه بـ (إلى) ليضمن الهز معنى الإدناء والإمالة والتقريب من فاعل الهز، وهي مريم عليها السلام، وفي هذا مزيد كرامة لمريم عليها السلام.

بيان ذلك: أن المنصوص عليه في الآية أنها لجأت إلى (جذع النخلة) لا إلى نخلة كاملة، ومع هذا أمرت أن تهز الجذع وتميله نحوها، ومن كرامة الله لها أن الجذع لن يستجيب لهزها فقط، بل وسيميل نحوها إجابة لجذعها له بيديها الضعيفتين غاية الضعف، وهذا أبلغ في الإعجاز، وأدل على قدرة العزيز الوهاب جل وعلا.

ثم جاءت الباء في (بجذع النخلة) -وهي للإلصاق- لتؤكد عليها أن تُمكن يديها من الجذع -حال هزها- غاية ما تستطيع من التمكن، وهذا أمر لها بفعل كل ما في وسعها من الأسباب الدنيوية.

◆ المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾^(١٠٩)

الإسراء.

اللام المفردة لها معاني كثيرة جداً، وأصل معانيها الاختصاص، قال أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: «أي يسقطون على وجوههم سجداً تعظيماً لأمر الله تعالى، أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك، وتخصيص الأذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل إذ حيثئذ يتحقق الخروار عليها، وإيثار اللام للدلالة على

(١) الدر المنثور (٤/٥٧٩).

اختصاص الخرور بها، كما في قوله: فخر صريعاً لليدين وللهم»^(١).

الذقن معروف، والمقصود به هنا الوجه كله كما قاله ابن عباس وقتادة، وإنما خصت الأذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلّل، وهذا ليس مقصودنا هنا، وإنما المقصود أن ذكر «اللام» هنا عوضاً عن «على» في قوله «للأذقان» للدلالة على معنيين:

معنى «على» وهو الاستعلاء؛ لأن الخرور وقع عليها، ومعنى الاختصاص، أي اختصاصها بالخرور، وخصت هذا الأعضاء بالذكر مع أن اليدين والقدمين تخران أيضاً؛ لأنها هي المقصود الأعظم من الخرور، لأن كمال الذل والخضوع إنما يكون بها.

◆ المثال الخامس: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١٠٣) سورة الصافات.

أذكر أولاً تفسير السلف لهذه الآية:

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة: أكبه على وجهه. وقال عكرمة، والسدي، وابن إسحاق، وغيرهم: أي صرعه على وجهه ليزبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه.

وقال مجاهد: وضع وجهه للأرض، وأدخل يده ليزبحه. وقال مرة: ساجداً^(٢).

هذا كلامهم -رحمهم الله-، ولعلي أوضح ما أجملوه، وأنشر ما طووه، فأقول:

تفسيرهم -رحمهم الله- يدور على أن إبراهيم عليه السلام جعل وجهه لإسماعيل عليه السلام جهة الأرض حال إرادته ذبحه، حتى لا ينظر إلى وجه ابنه حال ذبحه

(١) تفسير أبي السعود (١٩٩/٥).

(٢) انظر -غير مأمور- تفسير ابن جرير (٨٠/٢٣)، والدر المنثور السيوطي ج ٧/ ص ١١١،

وتفسير ابن كثير (١٦/٤)، وغيرها.

فيقع منه رحمة له فيتردد، وهذا ليس بتكلف ولا تقول، بل هو الذي دلت عليه الآية بكلماتها وأدواتها وسياقها، لذا صرّح جماعة من السلف بأن هذه هي الهيئة التي أراد إبراهيم عليه السلام أن يذبح عليها اسماعيل عليه السلام كما تقدم.

وتوضيح ذلك: أن «اللام» في قوله (للجبن) عوض عن «على» للدلالة على معنيين وهما: الاختصاص والاستعلاء، والمعنى أن إبراهيم عليه السلام صرع ابنه إسماعيل عليه السلام على الأرض كما يفهم من السياق.

وهذا الصرع له صفة خاصة به، وذلك أن مجيء اللام الدالة على الاختصاص بدلاً من (على)، وذكر (الجبن) بدلاً من (الجنب)، دلّ ذلك على أن الذبح كان على هيئة غير الهيئة المعتادة، وأن هذا الصرع له صفة خاصة به.

ويزيد ذلك بياناً؛ أن الصرع المعتاد الذي يكون على أحد الشقين لا يُقال فيه «صرعته لجبينه» بل يُقال: «لجنبه أو على جنبه».

وإذا أضفت إلى ذلك ما يتعلق بالمعاني، وهو عظم ما في قلوب الأنبياء من الرحمة، خصوصاً خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وأنه يتعبد الله بها كما يتعبد به بتنفيذ أمر الذبح، فجمع بين العبادتين على أكمل وجه، وهذا لا يُوفق له إلا القلة من عباد الله.

فلعله قد بان لك معنى ما ذكره من تقدم السلف رحمهم الله، دون الحاجة إلى رمي ذلك بأنه من الإسرائيليات.

◆ المثل السادس: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۖ وَمِنْ شَرِّ

حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۖ﴾ الفلق.

وهذا المثال من كيسي فإن كان صواباً فمن الله وحده، وإلا فمني ومن الشيطان،
وأستغفر الكريم الرحمن.

أقول: في مثل هذه المواطن ينبغي لقارئ القرآن أن يسأل نفسه ؛ لم جاءت «ال»
مع «النفاثات»، ولم تأت مع «حاسد» ؟، وبعبارة أخرى ؛ لم جاءت مع السحر دون
الحسد؟

والجواب: أنه بالتأمل قد يُقال — والعلم عند الله — أنه لما كان السحر باختلاف
أنواعه وأشكاله وأغراضه شراً كله، جاءت «ال» هذه المفيدة لاستغراق كل أفراد
جنسه، حتى تتحقق الاستعاذة منه كله، والمعنى: ومن شر (كل) نفاثة في العقد.

أما الحسد في أصله فمنه المذموم ومنه الممدوح وهو الغبطة^(١)، وهو هذا يختلف
عن السحر الذي هو شر كله، فلم تأت «ال» مع الحسد -مع أن الاستعاذة من
شرهما جميعاً- لبيان الفرق بين السحر والحسد، وحتى لا يُظن أن الاستعاذة من
الحسد تشمل أيضاً ما هو ممدوح منه، فإن ذلك لا يستعاذ منه، بل يتطلب العبد
حضوره وحصوله.

◆◆ وهذه أمثلة أخرى، أدعها للمِران:

◆ **المثال السادس:** قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَيُزَلُّ الْمَلَكُ تَكُنْ تَنْزِيلًا ۝٢٥﴾ الفرقان.

◆ **المثال السابع:** قوله تعالى ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ المزمل.

◆ **المثال الثامن:** الفعل (مَرَّ) و(مَرَّوا) و(يمرون) كما في قوله تعالى ﴿وَكَايْنِ مِّنْ

ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ يوسف، مع قوله

(١) كما في «الصحيحين» في قوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين...».

تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾ (٣٠) المطففين، فلم عُدي في الآية الأولى بـ «على»، وفي الثانية بـ «الباء» ؟

◆ **المثال التاسع:** التغاير بين العطف بالواو والفاء في أوائل سورة المرسلات، النازعات.

◆◆ التضمين:

التضمين له علاقة متينة جداً بحروف المعاني ولذا أوردته هنا، وهي كلمة تدور في كتب اللغة بين العروضيين والأدباء والنحويين والبيانين، ولكل طائفة من هؤلاء معنى خاص يفسرون به التضمين.

والذي يهمنا من هؤلاء هم طائفة البيانين وكذلك بعض النحاة، فالتضمين الذي نقصده هنا هو: «إشراب لفظ معنى لفظ آخر».

وبعبارة أوضح «إشراب فعل معنى فعل آخر ليدل الفعل الأول على معناه الأصلي وعلى المعنى الذي دل عليه السياق»^(١) لأن غالبه في الأفعال وقد يكون في

(١) ينظر مبحث التضمين في مغني اللبيب ص (٨٩٧)، والبرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٣٨، والأشباه والنظائر للسيوطي ص: (١٠)، والإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٠٩، وهناك رسالة صغيرة مفيدة بعنوان «التضمين في العربية بحث في البلاغة والنحو» لـ د. أحمد حسن حامد، وفي (ملتقى أهل التفسير) على الشبكة العنكبوتية جرى تناول هذا الموضوع تحت عنوان (التضمين في القرآن الكريم) وفيه فوائد خصوصاً في مداخلة أخي الشيخ الدكتور عبدالرحمن الشهري، ولم أقف على رسائل جامعية في هذا الموضوع إلا على رسالة ماجستير واحدة في الجامعة الأردنية بعنوان (التضمين في القرآن الكريم: دراسة تطبيقية) تأليف: أحلام محمد عبدالكريم الصمادي، لكنها باللغة الإنجليزية، وما أحرى هذا الموضوع (التضمين في القرآن الكريم والسنة النبوية) برسائل جامعية استقرائية دقيقة.

الأسماء^(١)، فهم قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضميناً. وهذا التضمين لا يقول به كل النحاة، وإنما يقول به الخليل وسيبويه، وتبعهم على ذلك البصريون، ونصره ابن جني في «الخصائص»، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم في «بدائع الفوائد»، وبه يقول جمهور المفسرين، وعلى رأسهم ابن جرير الطبري، وأبو السعود والقرطبي، وابن كثير، وغيرهم كثير.

◆ يقول ابن جني:

«اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه **إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه** وذلك كقول الله عز اسمه ﴿أَجَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ البقرة، وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي أفضيت بـ (إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة جئت بـ (إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه»^(٢) ثم يقول: «ووجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يكاد يحاط به ولعله لو جمع أكثره لا جميعه لجاء كتاباً ضخماً وقد عرفت طريقه فإذا مر بك شيء منه فتقبله وأنس به **فإنه فصل من العربية لطيف حسن يدعو إلى الأنس بها والفحاة فيها**»^(٣).

(١) مثاله قوله تعالى: {حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ} (٥٠١) الأعراف، فعدى الاسم (حقيق) بـ (على) ليضمه معنى الحرص أي: (حقيق وحرص على).

(٢) الخصائص ٢/ ٣٠٨.

(٣) الخصائص ٢/ ٣١٠.

◆ ويقول شيخ الإسلام:

«والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ومن هنا غلط^(١) من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ (٢٤) ﴿ص﴾ ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ (١٤) ﴿الصف﴾ أي مع الله ونحو ذلك.

والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمن فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيََنَا إِلَيْكَ﴾ (٧٣) ﴿الإسراء﴾، ضمن معنى يزيغونك ويصدونك وكذلك قوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (٧٧) ﴿الأنبياء﴾، ضمن معنى نجيناه وخلصناه، وكذلك قوله ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ (٦) ﴿الإنسان﴾، ضمن يروى بها ونظائره كثيرة^(٢).

◆ وقد أقر استعمال التضمن المجمع اللغوي في القاهرة بثلاثة شروط:

- ١ - تحقيق المناسبة بين الفعلين والتي تسمى العلاقة.
- ٢ - وجود قرينة تدل على المعنى الملحوظ مع الأمن من اللبس.
- ٣ - ملائمة التضمن للذوق العربي.

◆ وفائدة التضمن: هي الإيجاز والاختصار بدل استخدام كلمتين استخدمنا كلمة

(١) يقول ابن جني ٣٠٦/٢: «باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض: هذا باب يتلقاه الناس مغسولاً ساذجاً من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه... ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا لكننا نقول إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا...».

(٢) مجموع الفتاوى ٣٤٢/١٣.

واحدة^(١).

◆ ومن الأمثلة على ذلك:

◆ المثال الأول: قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٦﴾

الإنسان.

يشرب بها: عادة فعل يشرب أن يعدى بـ «من» وقد عدي هنا بحرف «الباء».

والسر في ذلك لتضمين فعل «يشرب» فعل «يروي».

فيكون المعنى: عيناً يشرب منها ويروى بها عباد الله.

فجاءت الآية في أتم أساليب البلاغة والإيجاز، لأن المقصود ليس شربهم فقط بل يشربون منها ويروون بها، لذا عدت بالباء.

فإذا قيل: لم يَقل «يروي بها» بدل «يشرب»؟

فالجواب: أن كل شربة في تلك الدار لها لذة، فلو قال «يروي بها» لما دلت على لذة الشربة بعد الشربة، والله أعلم^(٢).

◆ المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

الحج.

يُرَدُّ فِيهِ: أصل فعل الإرادة يتعدى بنفسه ولا يحتاج إلى فعل حتى يعديه فتقول

(١) ينظر مغني اللبيب ص: (٦٨٧).

(٢) قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٣٨: فضمن (يشرب) معنى يروي، لأنه لا يتعدى بالباء فلذلك دخلت (الباء) وإلا ف (يشرب) يتعدى بنفسه، فأريد باللفظ الشرب والري معا فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد.

أردت كذا وكذا، وأراد فلان كذا وكذا، من غير حاجة إلى فعل يعديه إلى مفعوله.

فالآية هنا عدت فعل يرد بالباء «بالحاد»، ليضمن -والله أعلم- فعل الإرادة معنًى مناسباً لحرف الجر وهو فعل «الهم» كما ذكره ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد.

فيكون المعنى: ومن يرد أن يلحد في البيت الحرام، أو يهم فيه بهم سوء وظلم وإلحاد، فإن الله سيذيقه من العذاب الأليم^(١).

◆ **المثال الثالث:** قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧) الأنبياء.

الأصل في فعل «نصر» أن يتعدى بـ (على) فيقال: نصرت فلان على فلان، ونصرت المسلمين على الكفار، وهنا عُدِي بـ (من) وذلك -والعلم عند الله- لتضمن نصرناه معنى انتقمنا منهم، أو نجيناه منهم، فيكون المعنى: نصرناكم عليهم وانتقمنا منهم^(٢).

◆ **المثال الرابع:** قوله تعالى في اليتامى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (٢) النساء.

الأصل في فعل أكلوا أن يتعدى بنفسه، فتقول: أكلت كذا وكذا، أو بمن فتقول:

(١) قال ابن القيم في «زاد المعاد» ١/ ٥١: فتأمل كيف عدى فعل (الإرادة) ها هنا بـ (الباء) ولا يقال أردت بكذا إلا لما ضمن معنى فعل هم فإنه يقال هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم.

(٢) سبق قول شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» ١٣/ ٣٤٢: ضَمَّنَ معنى نجيناه

وخلصناه.

أكلت من كذا.

فالآية هنا عدت فعل الأكل بحرف «إلى» لتضمن الأكل معنى «الجمع والضم».

فيكون المعنى: ولا تأكلوا أموالكم بالباطل بأي طريقة، ومن هذه الطرق: أن تجمعوها وتضموها إلى أموالكم حال كون هذا الضم فيه إضرار بهم.

إذاً ليس النهي عن مجرد الأكل الصريح فقط، بل هو نهى عن أي ضم لأموال اليتامى فيه إضرار صريح أو خفي، وهذا المعنى دلت عليه كلمة «إلى»^(١).

◆ المثل الخامس: قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور.

يخالفون عن: الأصل تعديته بنفسه وقد عدت بـ (عن) لتضمن المخالفة معنى الإعراض، أي يخالفون حال كونهم معرضين^(٢).

وتأمل هذه الأمثلة أيضاً:

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة.

(١) في تفسير ابن كثير ١ / ٤٥٠: قال مجاهد وسعيد بن جبير وابن سيرين ومقاتل بن حيان والسدي وسفيان بن حسين: أي لا تخطوها فتأكلوها جميعاً.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢ / ٦: وقال الحذاق (إلى) على بابها، وهي تتضمن (الإضافة)، والتقدير لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم في الأكل.

وقال أبو السعود في تفسيره ٢ / ١٤٠: نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أي لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم.

(٢) قال القرطبي في تفسيره ١٢ / ٣٢٣: ومعنى يخالفون عن أمره أي يعرضون عن أمره.

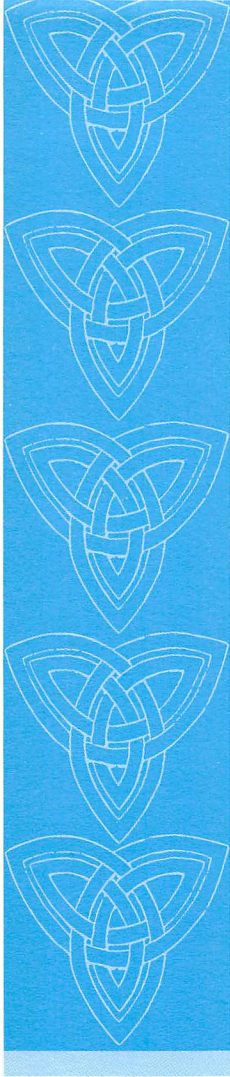
وقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١) المعارج.

والأمثلة كثيرة جداً^(١).

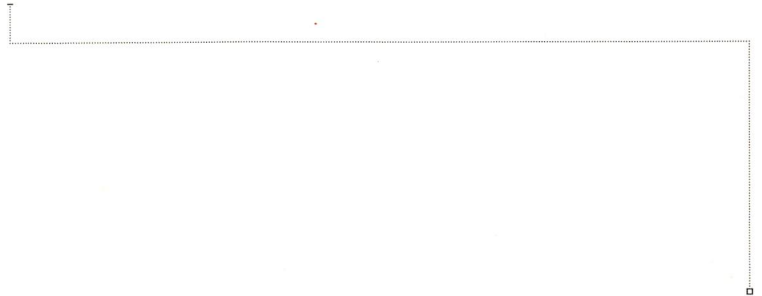


(١) للاستزادة من الأمثلة ينظر: مغني اللبيب ص (٨٩٧) ومن أمثله التي ذكرها زيادة على ما تقدم: قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الْيَمَامِ أَلْفَتْ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (١٨٧) سورة البقرة، ضمن الرفت معنى الإفضاء فعدي بـ (إلى) مثل ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وإنما أصل الرفت أن يتعدى بـ (الباء) يقال أرفث فلان بامرأته، وقوله تعالى ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ (١١٥) سورة آل عمران أي فلن يجرموه أي فلن يجرموا ثوابه ولهذا عدي إلى اثنين - أي مفعولين - لا إلى واحد، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ الْيَمَامِ﴾ (٢٣٥) سورة البقرة، أي لا تنووا ولهذا عدي بنفسه لا بـ (على)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَىٰ الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ (٨) سورة الصافات، أي لا يصغون، وقولهم (سمع الله لمن حمده) أي استجاب فعدي يسمع في الأول بـ (إلى) وفي الثاني بـ (اللام) وإنما أصله أن يتعدى بنفسه مثل: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ (٤٢) سورة ق، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (٢٢٠) سورة البقرة، أي يميز ولهذا عدي بـ (من) لا بنفسه، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ (٢٢٦) سورة البقرة، أي يمتنعون من وطء نسائهم بالحلف فلهذا عدي بمن.

و ينظر أيضاً: البرهان للزركشي ٣/ ٣٣٨، ومن أمثله التي ذكرها: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُ﴾ (١٨) سورة النازعات، والأصل (في أن) لا (إلى أن)، فضمن ﴿هَلْ لَكَ﴾ معنى أَدْعُوكَ، وأيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ (٢٥) سورة الشورى، عُدِيت (يَقْبَلُ) بـ (عن) لتضمنها معنى العفو والصفح.



المرحلة الرابعة



معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها، مثل دلالة الجملة الاسمية والفعلية وأثر التقديم والتأخير ونحو ذلك^(١).

الجميل لها أثر في إدراك أكمل المعاني، ومعرفة أتم أوجه التفسير عند الكلام على تفسير كتاب الله عز وجل، لذلك فلا بد أن يكون طالب العلم عارفاً بدلالات الجمل من جهة علم البلاغة وبالأخص علم المعاني.

والجميل في لغة العرب تنقسم باعتبارات كثيرة، وإنما يهمننا منها ماله علاقة بعلم التفسير، مما يعين على فهم القرآن ثم فهم كلام أئمة السلف في التفسير - رحمهم الله -.

وسنقصر الكلام هنا على مبحثين فقط:

(١) وسأقصر الكلام هنا على مباحثه الواضحة قليلة الغموض، وأما دقائق هذه المباحث مع تفصيل الكلام فيها وتناول دلالات التقديم والتأخير والحذف والقصر فهو موجود في المطولات، ولا بد من الوقوف عليها لكن بعد هذا المستوى بإذن الله.

◆ المبحث الأول: دلالة الجملة الاسمية والفعلية.

◆ **الجملة الاسمية باختصار:** هي التي تتألف من مبتدأ وخبر. فكل جملة صدرها اسم فهي جملة اسمية.

وهذه الجملة - في علم البلاغة - تدل غالباً على الدوام والثبوت دون التقييد بزمن، وهي دلالة مهمة في تفسير كلام الله تعالى.

◆ **والجملة الفعلية:** هي التي تتألف من فعل وفاعل، فكل جملة صدرها فعل فهي جملة فعلية.

وهذه الجملة في - علم البلاغة - تدل غالباً على التجدد والحدوث لتقييده بالزمن، وهي دلالة مهمة في تفسير كلام الله تعالى، كما أن الجملة الفعلية أقوى جرساً في الخطاب، خصوصاً في باب الترغيب والترهيب (الوعد والوعيد)، لاجتماع الحدث والزمن معاً، مع ما تحدثه (حركة) الفعل والفاعل أو ما يقوم مقامهما، وكذا المفعول - إن وُجد -؛ من قوة التصور لطبيعة الخطاب.

◆ ومن أمثلة ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ الفاتحة.

جيء بالجملة الاسمية - والله أعلم - لإفادة أن الله عز وجل مستحق للحمد استحقاقاً دائماً ثابتاً له سبحانه، لا ينفك عنه بأي وجه من الوجوه.

٢ - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَصْكَمٌ﴾ ﴿٢﴾ الإخلاص.

جيء - والعلم عند الله - بالجملة الاسمية؛ لإفادة أن الله عز وجل له الصمديّة

الدائمة الثابتة، فالخلق كلهم يصمدون إليه في كل حين، وعلى كل حال.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۖ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۖ﴾ (١٦) الانفطار .

جيء - والعلم عند الله - بالجملة الفعلية (يَصْلَوْنَهَا ..) لدلالة الفعلية على زمن الاصطلاء مع تقوية الوعيد، ثم عطفت عليها الجملة الاسمية (وَمَا هُمْ ..) لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات في كونهم غير غائبين عن النار.

٤ - قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ۚ﴾ (٢١) الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٢٢) النبأ .

جيء - والعلم عند الله - بالجملة الفعلية (يَتَسَاءَلُونَ) لدلالة الفعلية على تجدد الخوض وكثرة الولوج فيه، ثم عطفت عليها الجملة الاسمية (هُم فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) دون أن يقول: (الذي يختلفون فيه) أو نحو ذلك، لتفيد أن الاختلاف في أمر النبأ العظيم) متمكن منهم ودائم فيهم؛ لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۖ﴾ (٢٦) المعارج، جيء - والعلم عند الله - بالجملة الفعلية

(يُصَدِّقُونَ) لدلالة الفعلية على أن التصديق (وهو الإيذان) يحتاج لتجديد ومعاودة؛ لأنه يزيد وينقص، فلما لم يمكن ثباته على أكمل وجه كان المشروع للمؤمن أن يتعاهد تجديد إيمانه ساعة بعد ساعة، ثم عطفت عليها الجملة الاسمية (هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ) دون أن يقول (يشفقون من ..) أو نحو ذلك، لتفيد أن الإشفاق من العذاب ينبغي أن يستديمه المؤمن، وأن يلزمه في كل أموره وأحواله، وذلك لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات.

٦- قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) ﴿التوبة﴾.

فأثر الجملة الاسمية على الفعلية، فلم تأت الآية (قد برئ الله ورسوله) أو نحو ذلك، لدلالة الاسمية على دوام البراءة واستمرارها، وللتوسل إلى تهويلها بالتونين التفخيمي^(١).

٧- قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مِّنْكُمْ﴾ (٢٥) ﴿الذاريات﴾.

قال أهل المعاني: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة، لأن (سلامًا) جملة فعلية والتقدير: (نسلم عليك سلامًا)، أما (سلام) فالجملة اسمية، والتقدير: (وعليكم سلام)، والجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدوث^(٢).

٨- قوله تعالى: ﴿يَخِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ (١٢) ﴿مريم﴾.

٩- قوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥) ﴿مريم﴾.

ف (خذ): جاءت الجملة فعلية لأن الأخذ يحتاج إلى تجديد وتقوية.

أما (وسلام): فجاءت جملة اسمية لأن السلام عبارة عن تنزيه وتخليه، وهي

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٠.

(٢) قال ابن القيم في زاد المعاد ٢/ ٣٨٣، ومثله مختصر أفي جلاء الأفهام (ص ٢٧٢)، وكذا في بدائع الفوائد (٢/ ٣٨٥)، قال:

«وقوله: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ﴾ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية، تقديره: سلمنا عليك سلامًا، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية، تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن» ١هـ.

ثابتة له على الدوام نعمة من الله على عبده يحیی علیه السلام، فكانت جملة اسمية.

١٠- قوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا

عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) الكافرون.

﴿لَا أَعْبُدُ﴾ جملة فعلية مضارعة، تنفي عبادته لمعبودهم في الزمن الحاضر

والمستقبل.

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ جملة فعلية فعلها مضارع، تتناول ما يعبدونه في الحاضر

والمستقبل.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ﴾ جملة اسمية، تدل على أن هذه النفوس الكافرة لا تعبد إله

محمد ﷺ بل تعبد إلهاً آخر، وهذا وصف دائم ثابت لها ما دامت كذلك.

﴿مَا أَعْبُدُ﴾ جملة فعلية فعلها مضارع، تتناول الحاضر والمستقبل.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ جملة اسمية، فيها النفي عن ذاته الشريفة ﷺ أن يصدر منها

ذلك أو أن تتصف به، فنفسه ﷺ لا تقبل الشرك، وتنفيه نفياً مطلقاً مستقراً ثابتاً في

كل زمن ومكان وحال.

﴿عَبَدْتُمْ﴾ جملة فعلية فعلها ماضي، تتناول ما عبدوه في الأزمنة الماضية^(١).

(١) ينظر كلام شيخ الإسلام في الفتاوى (١٦/٥٥١ - ٥٥٧) عن هذه السورة العظيمة،

وهو كلام - مع طوله - نفيس متين وما قال: «..ولم يقل عنهم: (و لا تعبدون ما أعبد)، بل ذكر

الجملة الاسمية؛ ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد، لا يمكن أن

تعبد ما دامت كافرة، إذ لا تكون عابده إلا بان تعبد وحده بما أمر به على لسان محمد، ومن كان

كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط، وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة

اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله...» اهـ.

◆◆ المبحث الثاني: دلالة التقديم والتأخير في الجملة.

والمقصود به هو تقديم ما حقه التأخير والعكس ؛ كتقديم الفاعل على المفعول والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال على الحال، والظرف أو الجار والمجرور على متعلقهما، ونحو ذلك.

وفوائد ذلك لا تنحصر، قال الجرجاني في «دلائل الإعجاز»: «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة»^(١).

ومن فوائد ذلك: بيان الأهم، الحصر، الاختصاص، مراعاة الفاصلة، ونحو ذلك، وهذه أمثلة توضح ذلك:

أ) بيان الأهم، ومثاله:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ (٢٤) التوبة.

قال ابن القيم: «وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم، وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولاً بذكر أصول العبد، وهم: آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بأبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم، وحتى عن أبائهم؛ ولهذا حملتهم محاماتهم عن آباؤهم ومنازلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على

آبائهم بالكفر والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم، ثم ذكر الفروع، وهم: الأبناء لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب، فذكر الأصول أولاً، ثم الفروع ثانياً، ثم النظراء ثالثاً، ثم الأزواج رابعاً؛ لأن الزوجة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها»^(١).

ب) إفادة الاختصاص أو الحصر:

قال السيوطي: كاد أهل البيان يطبقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر^(٢) سواء كان مفعولاً أو ظرفاً أو مجروراً؛ ولهذا قيل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة، معناه نخصك بالعبادة والاستعانة، وفي ﴿وَلَكِنْ مُتَّمَّ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَلَىٰ اللَّهُ تُحْشَرُونَ﴾ آل عمران، معناه: إليه لا إلى غيره»^(٣).

◆ ومن أمثلة ذلك أيضاً:

١ - قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الزمر، ولم يقل بل اعبد

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٢).

(٢) قال تقي الدين السبكي في كتاب الاقتناص في الفرق بين الاختصاص: «اشتهر كلام الناس في أن تقديم المعمول يفيد الاختصاص، ومن الناس من ينكر ذلك ويقول: إنما يفيد الاهتمام، وقد قال سيبويه في "كتابه": وهم يقدمون ما هم به أعنى، والبيان على إفادته الاختصاص، ويفهم كثير من الناس من الاختصاص الحصر، وليس كذلك، وإنما الاختصاص شيء والحصر شيء آخر، والفضلاء لم يذكروا في ذلك لفظة الحصر، وإنما عبروا بالاختصاص، والفرق بينهما: أن الحصر نفي غير المذكور، وإثبات المذكور، والاختصاص قصد الخاص من جهة خصوصه...أ.هـ. «نقله في الإتيان ١٤١/ ٢.

(٣) الإتيان في علوم القرآن ١٤٠/ ٢.

الله؛ لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ فصلت، أي إن كنتم تخصونه بالعبادة^(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأنبياء، فإنه إنما قال ذلك، ولم يقل: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لأمرين؛ أحدهما: تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها...، وأما الثاني: فإنه لما أراد أن الشخوص خاص بهم دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولاً، ثم بصاحبه ثانياً كأنه قال: فإذا هم شاخصون دون غيرهم^(٣).

(ت) التنبيه على السببية: ومن أمثلة ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ قدمت العبادة على الاستعانة؛ لأن العبادة سبب لحصول الإعانة^(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿٣٠﴾ النور، لأن زنا البصر داع إلى زنا الفرج^(٥).

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ البقرة، فإن التوبة سبب الطهارة.

(١) المثل السائر لابن الأثير ٢/ ٣٦.

(٢) ينظر البرهان للزركشي ٣/ ٢٣٦.

(٣) المثل السائر ٢/ ٣٨.

(٤) ينظر المثل السائر ٢/ ٤٣، والبرهان للزركشي ٣/ ٢٣٦.

(٥) ينظر البرهان للزركشي ٣/ ٢٥١.

ث) التقديم للتنويه: ومن أمثلة ذلك:

- ١- قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ العلق، فكونها أول آية تنزلت، يدل دلالة أكيدة على أهمية العلم ووسائله في هذا الدين الخاتم.
- ٢- قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۝١٩﴾ محمد، قال البخاري: باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فبدأ بالعلم^(١).
- ٣- قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ الرحمن، فذكر تعليم القرآن بعد اسم الرحمن لله عز وجل؛ يدل على أن من أعظم آثار رحمته: تعليم القرآن.

ج) التقديم للتحذير: ومن أمثلة ذلك:

- ١- قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ الأنفال، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ التغابن، قدمت الأموال على الأولاد في الفتنة لأن الفتنة بها أشد وألزم، فكان تقديمها أولى، وكما قال تعالى: ﴿سَخَّطْنَا أَمْوَالَنَا وَاهْلُونَا ۝١١﴾ الفتح، فنص على المال، وأما الأولاد فذكر ما يشملهم ويشمل غيرهم.
- ٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ فاطر، وإنما قدم الظالم لنفسه للتحذير منه؛ لأن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصدين؛ لأنهم قليل بالإضافة إليه، ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل، وهذا

(١) صحيح البخاري ٣٧/١.

لا شك يورث العبد الوجع الشديد مما سيؤول إليه أمره ^(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ^(٤٩) الكهف. قال الفضيل بن عياض: يا ويلتاه ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر ^(٢).

وهذا باب واسع، وهو مبسوط في كتب علوم القرآن، وأترك مع هذا المثال، فإن الله عز وجل في جميع آيات الجهاد قدّم ذكر الأموال على الأنفس في بضع عشرة آية كقوله تعالى: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَتْلِيِّينَ دَرَجَةً﴾ ^(٩٥) النساء، وقوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ^(٤١) التوبة، وقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(١١) الصف، وغيرها كثير جداً.

٤- وجاء تقديم الأنفس على المال في موضع واحد فقط، وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ ^(١١٠) التوبة.

فما الحكمة في تقديم المال على النفس؟

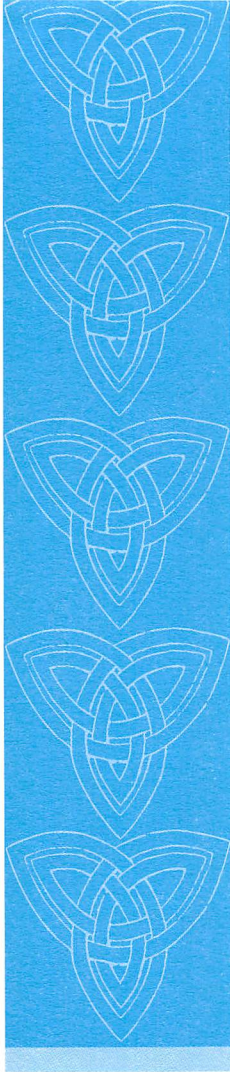
وما الحكمة في تأخيره في هذا الموضع وحده؟

تأمله -رحمني الله وإياك- فإنه مفيد.

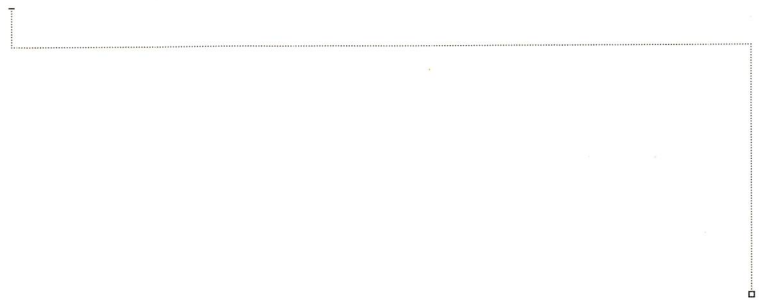


(١) وهذا أحد ما قيل في توجيه هذا الترتيب، وإلا فهناك أقوال أخرى، ينظر فيها مذكره القرطبي عند تفسيره لهذه الآية.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/٤١٩.



المرحلة الخامسة



فهم دلالة السياق من اللحاق والسباق.

دلالة السياق من الدلالات المهمة التي يكاد يطبق أهل التفسير على اعتبارها، وقد نص على أهمية دلالة السياق، وعلى اعتبارها من أهم الدلالات التي ينبغي للمفسر أن يعتني بها جماعة من أهل العلم سلفاً وخلفاً، منهم:

مسلم بن يسار^(١) فقال: «إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده»^(٢)، وكذا سليمان بن يسار^(٣)، وصالح بن كيسان^(٤)، وغيرهم من السلف.

ومن المفسرين ابن جرير، وابن عطية صاحب المحرر الوجيز، والقرطبي في

(١) البصري الفقيه الكبير، العالم العابد، إمام التابعين في زمانه.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/١

(٣) الفقيه الإمام عالم المدينة ومفتيها، كان هو وابن المسيب كفرسي رهان.

(٤) الإمام المشهور، سئل أحمد بن حنبل عن صالح بن كيسان؟ فقال: بخ، بخ، تعظيماً

لشأنه.

تفسيره، والعز بن عبدالسلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم خصوصاً في كتاب التبيان في أقسام القرآن وهو من أجود كتبه، وكذلك أبو السعود، وابن كثير، والرازي صاحب التفسير الكبير، والزرکشي كما في البرهان، وكذلك الألوسي، والشوكاني، وصديق حسن خان، وغيرهم من أهل العلم.

ودلالة السياق إما أنها تخصص العام أو تقييد المطلق، وفي مقابل ذلك تطلق المقيد أو تعمم الخاص، أو أيضاً ترجح عند اختلاف المفسرين، والأمثلة في هذا أكثر من أن تحصى، ولو أن طالب علم تفرغ لها؛ لجمع منها خيراً كثيراً.

يقول ابن القيم^(١): فائدة: إرشادات السياق: السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غَالَطَ في نظره، وَغَالَطَ في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢) الدخان، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير؟

◆◆ ومن أمثلة ذلك:

◆ المثال الأول: قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٣) الحديد، وقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾^(٤) المجادلة.

قيد السلف المعية المذكورة في هذه الآيات ونحوها بأنها معية العلم، فقال ابن

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٨١٥).

عباس: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ عالم بكم أينما كنتم، وعن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: علمه. وهذا كثير عنهم^(١).

والحجة في ذلك دلالة السياق، والسياق إنما هو في العلم، قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم^(٢)، وقال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا قوله تعالى ﴿مَنْ تَجَوَّى ثَلَاثَةً إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فقال: يأخذون بآخر الآية ويدعون أولها، هلا قرأت عليه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ..؟﴾ فعلمه معهم^(٣).

والآية كاملة هي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ المجادلة.

وكذا قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد، فافتتاحها وختامها بالعلم.

◆ **المثال الثاني:** قوله سبحانه ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ النجم، قال السعدي^(٤): قيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام كما يدل عليه السياق، وأن

(١) ينظر الدر المنثور ٨/ ٤٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٣.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص (١٢٣)

(٤) تفسيره ٨١٩/ ١.

محمدًا ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسرى برسول الله ﷺ، ولهذا قال ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) ﴿النجم﴾ أي رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلاً إليه ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (١٤) ﴿النجم﴾.

◆ **المثال الثالث:** قوله سبحانه في سورة النازعات: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى ﴿١٦﴾ إلى آخر الآيات من سورة النازعات.

فأنت حينما تقرأ هذه القصة في كتاب الله جل وعلا فإنك تعجب من موضعها، فالسورة كلها من أولها إلى آخرها في النزاع والموت، ثم ما بعد الموت، ثم الراجفة، ثم الرادفة والحافرة، ثم في قيام الطامة الكبرى، فما علاقة قصة موسى عليه السلام بهذه السورة؟ والذي لا يتأمل في دلالة السياق يغيب عنه هذا المعنى، إذ تمر عليه قصة موسى وكأنها في أي سورة أخرى ذكر الله فيها هذه القصة.

وهذه غفلة عن دلالة السياق فإن الله لما قص هذه القصة في هذه السورة كان لابد أن يكون لها معنى خاص بهذه السورة في هذا السياق، وإلا كان مجرد تكرار في سورة تتكلم عن أمر أجنبي عنها.

ولذا كان لابد من التأمل في دلالة السياق، وبالتأمل يظهر معنى جلي - والعلم عند الله - وهو:

أن الله عز وجل لما ذكر تكذيب كفار أهل مكة لرسول الله ﷺ فذكر قولهم: ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَرَدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ إلى ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) سورة النازعات، قال بعدها: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، فلما ذكر تكذيبهم وردهم لخبر رسول الله ﷺ في شأن الساعة،


ثم أخبر عن قوته جل وعلا بأنها إنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة، فمن لم يؤمن من هؤلاء الكفار بالبعث والنشور ولم يصدقك يا رسول الله بما أخبرت به، فدعهم فإن مصيرهم كمصير قوم موسى عليه السلام الذين أخذهم الله نكال الآخرة والأولى.

ويدل على ذلك أن كلمة «نكال» إنما تطلق في اللغة على التعذيب والتأديب الذي يكون فيه عبرة للغير؛ لأن النكال في أصل اللغة إنما هو الرجوع، تقول: نكلت عن كذا أي رجعت عنه، فأخذ الله عز وجل فرعون وقومه أخذةً يكون فيها عبرة وعظة لمن جاء بعده إن كانوا يعقلون.

فذكر الله أهل مكة بها جرى لفرعون وقومه تهديداً لهم بأنهم إن كذبوا محمداً كما كذب فرعون وقومه موسى عليه السلام فإن مصيرهم كمصير أولئك.

هذا هو المعنى الذي دل عليه السياق وهو معنى زائد عن دلالة الآيات بمفردها، لكن السياق دل على هذا المعنى بوضوح.

وهذا النوع من الدلالة أمر زائد على دلالة اللفظ، وهو أحد أنواع دلالات السياق أن يدل السياق على شيء جديد لم يدل عليها اللفظ.

◆ **المثال الرابع:** في سورة الصف قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ﴾  الصف.

من المتقرر أن سورة الصف من أولها إلى آخرها في الجهاد وصف القتال، فمجيء قصة موسى عليه السلام في هذه السورة الذي يظهر من أول الأمر أنها ليست لها

علاقة بالجهاد، ولكن دلالة السياق لها دلالة هنا لابد أن تظهر، وإلا يكون الكلام منقطعاً بعضه عن بعض على نحوٍ يبعد أن يقع في كلام الله عز وجل.

فعند تأمل قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ..﴾ تجد في هذا إشارة إلى قصة موسى عليه السلام في سورة المائدة في قوله سبحانه: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ (٢٢) المائدة، فأشارت الآية إلى نوع من أذى قوم موسى له، وهو التخلي عنه في موضع الجهاد حيث خذلوه في أشد المواقف الذي هو أشد حاجة إليهم، فلما ذكرت الآية هذه القصة من موسى وقومه، أرادت أن يذكر أمة محمد أن لا يقولوا له كما قال قوم موسى له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون! وإنما يقولون كما قال المقداد بن الأسود: إنا لا نقول كما قال قوم موسى لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) المائدة، وإنما نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

لذلك قد جاءت إشارة لهذا المعنى في أول السورة ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الصف، وأن الذي يقول ما لا يفعل يكون مصيره كمصير قوم موسى.

◆ المثل الخامس: اختلف السلف رحمهم الله في المراد بقوله تعالى ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) التكوير.

فمنهم من قال: هي الكواكب والنجوم، جاء ذلك عن علي وابن عباس وغيرهما.

ومنهم من قال: المراد بالخنس الجوار الكنس: البقر الوحشي، والضباء التي تكون في الصحاري والبراري؛ فإنها تخنس إذا رأت الإنسان.

والخنوس لغة: هو الاختباء والاختفاء مع تأخر، والكنس أي: أنها تكنس وتعود إلى أماكنها، والكناسة هي المكان الذي يبيت فيه الحيوان ونحوه، جاء ذلك عن جماعة من السلف مجاهد وإبراهيم النخعي.

ومن المرجحات التي ترجح القول الأول دلالة السياق؛ فإن السورة من أولها جاءت بذكر الكواكب والنجوم والسماء والليل والصبح، فكان الأولى بالذكر بعد هذه الكواكب هو ما يناسبها من أحوال بقية الكواكب الأخرى.

◆ **المثال السادس:** من سورة الماعون: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْأَيْمِ﴾ (١) **الماعون.**

فدلالة السياق على أن هذه الصفات ليست من صفات أهل الإيمان بل هي من صفات الكافرين المكذبين، فلا يمكن أن يكون مؤمناً كامل الإيمان وهو يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فدلالة السياق هي التي تظهر المعنى الكلي.

وكذلك أن مَنَعَ الماعون ليس من صفات المؤمنين، بل هو من صفات الكافرين. فسورة الماعون تحت على الأخلاق والصفات الواجبة على المؤمنين؛ لأن الله جعل البراءة منها من صفات المؤمنين، والذي يقع فيها، فيه صفة من صفات الذي يكذب بيوم الدين، وهذا المعنى لا تفهمه إلا بالربط بين معاني الآيات من أولها إلى آخرها.

◆ **المثال السابع:** قوله تعالى في آخر آية الدين: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢) **البقرة.**

الرابط بين هاتين الجملتين هي الواو، والواو في لغة العرب لا تأتي للشرط أبداً، وكثير من الناس يستنبط أن تقوى الله شرط في التعليم، وليس في الآية ما يدل على ذلك صراحة، ولكن هناك في لغة العرب ما يسمى: بدلالة الاقتران والالتزام، وهي من أنواع دلالة السياق، فهذه الواو دلت على وجود اقتران والتزام.

(فآية الدين) اشتملت على مسائل يجب على الإنسان تعلمها، وختمت الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، فدلّت الآية على أن هذا العلم يحتاج إلى تقوى، فهذه الواو لاتدل على ذلك بل الذي دل على معنى الشرط هو دلالة السياق^(١).

◆ المثال الثامن:

في قصة موسى عليه السلام عندما أمر قومه أن يذبحوا بقرة، فجاء في أولها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾^(١٧) البقرة، وكان المتبادر أن يأتي بأول أحداث القصة وقوعاً، وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْنَا ثُمَّ فَيَّهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(١٨) البقرة، والسر في ذلك -والله أعلم- أن المقصود من ذكر هذه القصة هو ذكر إعراض اليهود -قبحهم الله- عن تنفيذ أوامر الله عز وجل، وليس

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - كما في مجموع الفتاوي (١٨/ ١٧٧): وقد شاع في لسان العامة أن قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ من الباب الأول، حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: واتقوا الله يعلمكم، ولا قال: فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال زني وأزورك وسلم علينا ونسلم عليك ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاضض من الطرفين.

المقصود من إيرادها هو ذكر حادثة القتل ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا...﴾.

وهذا تلحظه بيناً في سورة الأنفال في موقعة بدر، فأول السورة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، وجاء جواب السؤال ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ الأنفال، وتلحظه أيضاً في قصة أصحاب الكهف.

◆ **المثال التاسع:** قوله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ الرحمن.

قال ابن كثير^(١): قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني الخير والشر، وقول الحسن ها هنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الخلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها.

◆ **المثال العاشر:** قوله تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ الْجَنَّةَ سُقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

مريم.

قال الإمام الشنقيطي في أضواء البيان^(٢): والذي يفهم من سياق القرآن أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة، لم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك، سواء قلنا إن الجذع كان

(١) تفسيره ٤/ ٢٧١.

(٢) ٣/ ٣٩٧.

يابساً أو نخلة غير مثمرة، إلا أن الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنياً.

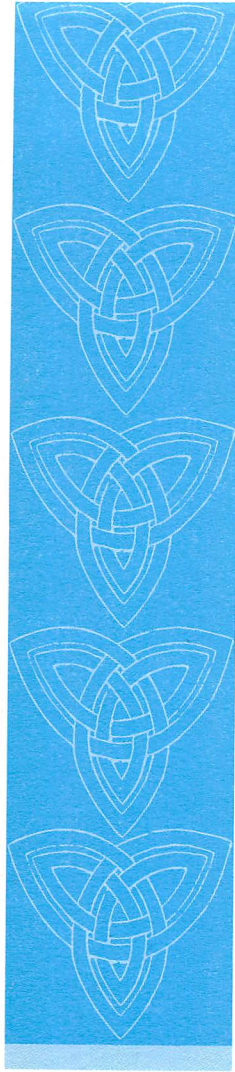
قال: ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرَىٰ عَيْنًا﴾ (١٦) مريم، يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة، لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به، فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر وإنبات الرطب وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة وبذلك يكون قرّة عين لها، لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرّة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر، وخرق الله لها العادة بتفجير الماء وإنبات الرطب وكلام المولود لا غرابة فيه.

◆ المثال الحادي عشر: قوله تعالى في سورة القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَنَبَّأَ بِهِ﴾ (١٦) إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٧).

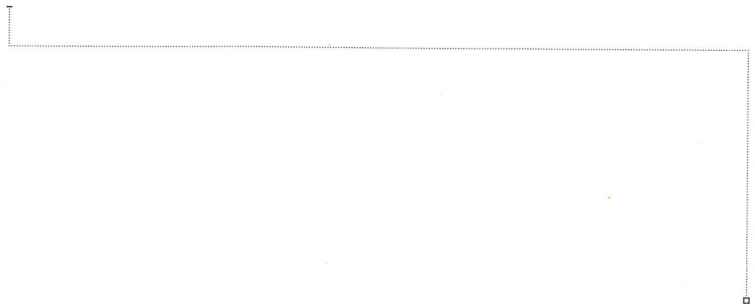
هذه الآيات جاءت في سياق الكلام عن القيامة، فالسباق في يوم القيامة وأحواله وحال الإنسان فيه، واللحاق في العاجلة والآخرة والموت والبعث، فلا شيء جاءت هذه الآيات الأربع في هذا السياق؟

أدع الأمر لك، فتأمله جيداً، فأمثاله كثير في كتاب ربك.





المرحلة السادسة



فهم موضوع السورة وما يتعلق به.

المقصود بموضوع السورة إذا أطلق هو: المعنى العام الذي أنزلت السورة من أجله، أو هو الموضوع الذي تدور عليه آيات سورة ما.

هذا هو المقصود بموضوع السورة، أو مقصود السورة، أو مقاصد السور، وهذا الاسم لهذا العلم لم يكن موجوداً عند السلف بهذه التسمية، كشأن كثير من العلوم التي كانت ممارسة عند السلف، لكن لم تكن التسمية موجودة كعلم النحو والبلاغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث وغير ذلك، وإنما دليل من قال به هو الاستقراء والتتبع لطريقة الأئمة في تفسير كتاب الله^(١)، وهذا العلم علم «موضوع السورة» لم يطرق كثيراً في كتب التفسير لا المتقدمين ولا المتأخرين، ولهذا أسباب:

(١) يُنظر محاضرة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: بعنوان «مقاصد السور وأثره في فهم التفسير»، فهي فاتحة هذا الموضوع.

١ - أن فيه نوع من الجرأة على تفسير كتاب الله جل وعلا، ولهذا أنكره جماعة من أهل العلم من المتأخرين لما في كثيرٍ منها من التكلف والبُعد.

٢ - أن كثيراً من كتب التفسير إنما تناولوا تفسير كتاب الله جل وعلا من خلال مدرسة تفسير الآية والكلمات، كما هو حال مدرسة أهل الأثر وأهل الرأي، أما الربط بين الآيات فلم يفرد له أحد ممن تقدم من الأئمة كتاباً في التفسير.

◆◆ وهذا اختلف المفسرون فيه على ثلاثة أقوال:

◆ **القول الأول:** لا تناسب بين السورة والآيات مطلقاً أو غالباً، وهو قول جماعة من المتأخرين منهم الشوكاني كما في فتح القدير^(١) قال:

« اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته».

◆ **القول الثاني:** أنه ما من آية أو سورة إلا ولها موضوع خاص بها ومناسبة بينها

(١) ٧٢/١.

وبين التي قبلها، وهذا هو القول الذي نصره برهان الدين البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ في كتابه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور »، واختاره السيوطي وغيره، ويظهر أنه اختيار ابن العربي -أيضاً- فقد ذكر في تفسيره أنه ألف كتاباً كبيراً في ذلك.

◆ **القول الثالث:** أن ما من سورة في الأغلب إلا ولها موضوع تدور عليها، وكذلك الآيات، فالآية في الأعم الأغلب تكون متصلة بما قبلها وما بعدها، ولا يلزم أن يكون ذلك في كل آية وكل سورة، ولو كان ؛ فالوقوف عليه في كل آية وسورة متعذر.

وهذا القول الثالث: هو القول الأقرب، وقرره الزركشي في كتابه «البرهان»، وهو مقتضى صنيع جماعة من المحققين من أهل العلم: كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، واستعمله الرازي في تفسيره، والطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» وغيرهم.

◆◆ لكن لا بد لمن أراد أن يخوض في هذه المسالك من أمرين:

◆ **الأمر الأول:** أن يكتفي بما ظهر له من الموضوع وتناسب الآيات من دون تكلف ولا تنطع، على خلاف ما جرى من البقاعي رحمه الله.

◆ **الأمر الثاني:** أن يكون الخائض في هذه المسالك عالماً بأقوال السلف في تفسير الآيات والسور التي يريد أن يستنبط لها مناسبة أو موضوعاً معيناً، وأن يكون مطلعاً عارفاً بعلوم البلاغة خصوصاً علمي «المعاني والبيان».

ومما يرجح هذا القول قوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَهْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ هود، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾ النساء.

فهذه الآيات تدل على أن جميع آيات القرآن محكمة وأنه لا خلاف فيه، وهذا مدح لكتاب الله وكمال المدح إنما يتم إذا كانت الآيات متناسبة مع ما قبلها وبعدها غالباً.

وإذا كانت السورة في مجملها تحوي موضوعاً، أو مقصوداً واحداً، أو عدة مقاصد تدور عليها، فإن هذا هو تمام الأحكام وتمام نفي الاضطراب والاختلاف. ويدل على ذلك - أيضاً - فعل السلف، فإن من تأمل كلامهم في التفسير وجد أنهم يعتبرون بمقاصد السور، ولذا قد لا يفهم المرء وجه تفسير السلف حتى يربط بين كلامهم وبين مقصود السورة التي أنزلت من أجله، بل نصوا على عدد من مقاصد السور، ومن ذلك:

(١) سورة الفاتحة: وهي أم القرآن، فقد جمعت علوم القرآن كاملة على جهة الإجمال، بل هي أم الكتب السماوية قاطبة.

مقصودها أن تجمع علوم القرآن بحيث تكون كالمقدمة لكتاب الله عز وجل، والفاتحة لجميع مقاصده وأغراضه، ولذا أخرج البخاري^(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أم القرآن: هي السبع المثاني والقرآن العظيم.

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري رواه ابن ماجه وغيره: أن الله أنزل مائة كتاب و أربعة كتب جمع علمها في الأربعة،

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٣٨ ح (٤٤٢٧).

وجمع علم الأربعة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في أم القرآن»^(١).

(٢) سورة براءة: وهي في صفات المنافقين.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة التوبة قال التوبة قال بل هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها^(٢).

قال سفيان بن عيينة: هذه السورة نزلت في المنافقين^(٣). وقال القرطبي: هذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف^(٤).

(٣) سورة الأنفال: وهي سورة بدر.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر^(٥).

قال ابن العربي: قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١٧).

(١) مجموع الفتاوى ١٤/٧.

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٣٢٢ ح (٣٠٣١)، وأصله في صحيح البخاري ٤/١٨٥٢ ح (٤٦٠٠).

(٣) زاد المسير ٣/٣٩٠.

(٤) تفسير القرطبي ٨/٦٣.

(٥) صحيح مسلم ٤/٢٣٢٢ ح (٣٠٣١)، وأصله في صحيح البخاري ٤/١٨٥٢ ح (٤٦٠٠).

الأنفال، هي من توابع ما تقدم وروابطه فإن السورة هي سورة بدر كلها^(١).

وقال الثعالبي: ولا خلاف أن هذه السورة نزلت في شأن بدر وأمر غنائمه^(٢).

٤ سورة النحل: وتسمى سورة النعم.

عن قتادة في قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ۝٨١﴾ إلى قوله ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ النحل، قال: ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم^(٣).

قال الإمام ابن تيمية: سورة النحل وتسمى سورة النعم كما قاله قتادة وغيره^(٤).
وقال العلامة السعدي: هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها^(٥).

وقاله الزنخشري وابن عطية وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم.

٥ سورة طه: وهي سورة الكتب المنزلة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه، فهي سورة كتبه، كما أن مريم سورة عباده ورسله.

ثم علل لذلك فقال: افتتحها بقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝٢﴾ طه إلى قوله ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۝٤﴾ طه ثم ذكر قصة موسى ونداء الله

(١) أحكام القرآن ٢/ ٣٨٧.

(٢) تفسيره ٢/ ٨٠.

(٣) ينظر الدر المنثور السيوطي ٥/ ١٥٤.

(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٣٠٨.

(٥) تفسيره ١/ ٤٣٥.

له ومناجاته إياه وتكليمه له... ثم ذكر قصة آدم لأنها أول النبوات...^(١). إلى آخر كلامه رحمه الله.

٦ سورة مريم: وهي سورة رحمة الله لأوليائه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه فهي سورة كتبه كما أن مريم سورة عباده ورسله^(٢).

وقد تكرر فيها اسم (الرحمن) في اثنتي عشرة آية، وهذا ما لم يقع في أي سورة أخرى من القرآن، وكذا تكرر ذكر الرحمة في السورة كثيراً، ويكفي في ذلك مطلعها ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ مريم، فهي سورة رحمة الله لأوليائه^(٣).

٧ سورة الأنبياء: وهي سورة الذكر الذي تنزل على الأنبياء جميعاً، أي ما اتفقت عليه الأديان السماوية.

قال شيخ الإسلام: سورة الأنبياء سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر. ثم علل لذلك فقال: افتتحها بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ الآية وقوله ﴿فَتَسْلُوْاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي﴾ وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ٢٣٧/١٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٣٧/١٥.

(٣) هذا مما استفدته من أخي الشيخ / عمر بن عبد الله المقبل، نفع الله به.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٦٥/١٥.

٨ سورة العنكبوت: وهي في الفتنة والابتلاء.

وقد بسط مقصودها وأوضحه أنتم إيضاح شيخنا الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: في محاضرة بعنوان: «مقاصد السور وأثره في فهم التفسير».

٩ سورة ص: وهي سورة الخصومات.

يقول ابن القيم: ... وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة ص من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخصم أهل النار، ثم اختصم المלא الأعلى في العلم - وهو الدرجات والكفارات - ثم تخصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامة ثانياً في شأن بني حلفه ليغوينهم أجمعين، إلا أهل الإخلاص منهم فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير (ص)^(١).

١٠ سورة ق: سورة القوة والعلو.

يقول ابن القيم عن سورة ق: ... والسورة مبنية على الكلمات القافية، من ذكر القرآن وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون، والتنقيب في البلاد، وذكر القبل مرتين، وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر: وهو

(١) بدائع الفوائد ٣/٦٩٣.

أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح^(١).

(١١) سورة القمر: وهي سورة إظهار الهيبة.

(١٢) سورة الرحمن: وهي سورة إظهار الرحمة.

يقول الرازي: ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة — أي سورة القمر — ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١١) القمر غير مرة، وذكر في السورة — أي سورة الرحمن — ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٢) الرحمن مرة بعد مرة، لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة وهذه السورة سورة إظهار الرحمة^(٢).

(١٣) سورة الواقعة: عن مسروق قال: من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة^(٣).

(١٤) سورة القلم: في الأخلاق.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فصل: سورة ن؛ هي سورة الخلق الذي هو جامع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ، قال الله تعالى فيها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) القلم^(٤).

(١٥) سورة الصف: نزلت في الجهاد، وهذا ظاهر.

(١) بدائع الفوائد ٣/٦٩٣.

(٢) التفسير الكبير ٢٩/٧٣.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٧/١٤٨.

(٤) مجموع الفتاوى ١٦/٦٢.

(١٦) سورة التكويد: في صفة يوم القيامة.

(١٧) سورة الانفطار: في صفة يوم القيامة.

(١٨) سورة الانشقاق: في صفة يوم القيامة.

هذه السور الثلاث في وصف يوم القيامة، لكن لكل واحدة منها وصف مغاير لما في أختها، ولذا قال ﷺ كما عند أحمد والترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾^(١). فأمر بقراءتها جميعاً، فتأمل الفرق بينها.

(١٩) سورة الليل: قال ابن عباس: إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل^(٢).

وهذا ظاهر لمن تأمل آياتها.

(٢٠) سورة الكافرون: وهي سورة الإخلاص الثانية، أو سورة التوحيد العملي الإرادي.

يقول ابن القيم عن سورتي الكافرون والإخلاص: وقد جمع سبحانه وتعالى هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص وهما: سورة ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ المتضمن للتوحيد العملي الإرادي، وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٧ وزاد: وأحسبه أنه قال: وسورة هود، وسنن الترمذي ٥/ ٤٣٣ وقال: هذا حديث حسن غريب، قال الحافظ في فتح الباري ٨/ ٦٩٥: حديث جيد.

(٢) الدر المنثور - السيوطي ٨/ ٤٠.

المتضمنة للتوحيد العلمي الخبري، فسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال وبيان ما يجب تنزيهه من النقائص والأمثال، وسورة ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له والتبرىء من عبادة كل ما سواه ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر^(١).

(٢١) سورة الإخلاص: هي صفة الرحمن، وهي في التوحيد العلمي الخبري.

فعن عائشة أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله يحبه^(٢).

يقول الرازي: اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد لما ذكرناه، فأحدها: سورة التفريد، وثانيها: سورة التجريد، وثالثها: سورة التوحيد، ورابعها: سورة الإخلاص^(٣).

وتلاحظ أن الأسماء كلها تدور على توحيد الله عز وجل، وسبق كلام ابن القيم قريباً عن سورتي الكافرون والإخلاص.

(٢٢) سورة الفلق: نزلت في إزالة الشرور الظاهرة أو الخارجية وكيفية التعوذ منها كما أن الله جعل النهار بضياءه يفلق ظلمة الليل؛ فهو قادر أن يفلق هذه الشرور الظاهرة ويخرج منها الخير.

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٤٣).

(٢) صحيح البخاري ٦/٢٦٨٦، وصحيح مسلم ١/٥٥٧.

(٣) التفسير الكبير ٣٢/١٦١.

(٢٣) سورة الناس: نزلت في إزالة الشرور الباطنة أو الداخلية، وكيفية التعوذ منها، وهذه الشرور باطنة فناسبها الاستعاذة بهذه الصفات (رب الناس، ملك الناس، إله الناس).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - في معرض كلامه عن سورة الناس -: فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد، و أما الشر الصادر من غيره فسورة الفلق فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً، والله أعلم^(١).

وأوضح ذلك ابن القيم بما لا مزيد عليه فقال:

« وهذه السورة - أي سورة الناس - مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سببه الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان، الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، (فسورة الفلق) تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، (وسورة الناس) تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل:

فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني: في سورة الناس، يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب، والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما، ف (سورة الفلق) تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، و (سورة الناس) تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ١٧/٥٦٣.

(٢) بدائع الفوائد ٢/٤٧٣.

وهذا قليل من كثير وإلا فمن تدبر في كتاب الله، ونظر في كلام أهل العلم وجد مزيداً على ذلك:

فسورة المائدة في الأحكام.

وسورة الحج في التعظيم (تعظيم الله وتعظيم اليوم الآخر وتعظيم شعائر الله).

وسورة المدثر في الدعوة.

وسورة عم يتساءلون في البعث وهكذا.

◆◆ كيف يمكن أن نستخرج المقصود العام للسورة؟

◆ وهذا يمكن بإحدى ثلاثة وسائل:

١ - أن ينص العلماء من أهل التحقيق على أن مقصود السورة كذا وكذا.

كما نصوا على أن سورة الإخلاص في العلم الخبري، وهو توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية، وأن سورة الكافرون في بيان التوحيد العملي الطلبي وهو المسمى بتوحيد الألوهية، ونصوا على أن سورة النحل نزلت في النعم، وغيرها كما سبق.

٢ - أن يكون موضوع السورة ظاهراً من اسمها، أو من أولها أو بها معاً.

مثال ذلك: سورة القيامة: فمن اسمها ومن مطلعها مقصود السورة هو الكلام عن يوم القيامة، ولذا عندما تقرأ قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٧) فلا بد أن تسأل نفسك ما علاقة هذه الآيات بموضوع السورة ومقصدها فهذه الآيات لا بد لها من رابط بها

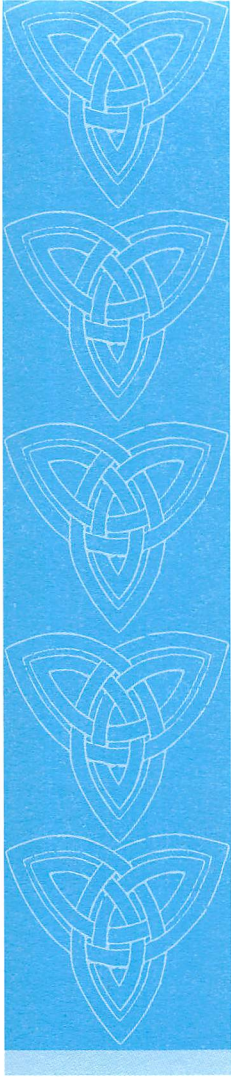
قبلها وبعدها؟

والجواب: أن في هذا إشارة إلى أن مثل هذه السورة لا ينبغي لأي عبد أن تمر عليه مروراً سريعاً من دون تفكير في هذا اليوم العظيم وهو يوم القيامة، فمن قرأها فلا يستعجل بقراءتها فالأمر عظيم.

٣ - الاستقراء: بالتأمل في آيات السورة، والاستقراء يكون نافعا عند الأصوليين إذا كان كاملاً أو أغلياً، أما الاستقراء الجزئي فلا عبرة به.

ومثال ذلك: سورة الماعون: جاءت لتأمر بمكارم الأخلاق الواجبة على المؤمنين، وأن من انتقص شيئاً منها فقد ترك شيئاً من واجبات الدين، وأن من اتصف بالصفات التي نهت عنها، فقد اتصف بصفات الذين يكذبون بيوم الدين. ومثلها: سورة النحل، وطه، ومريم، والأنبياء، وقد تقدم بيان ذلك.





المرحلة السابقة



جمع الآيات التي تتكلم عن موضوع واحد في موضع واحد.

ويسمى في المصطلح المعاصر بالتفسير الموضوعي، وهو الذي ألف فيه الإمام المفسر الفقيه اللغوي الأمين الشنقيطي «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن».

والمقصود بهذه المرحلة أنه بعد ظهور دلالة السياق ومقصود السورة؛ ينتقل البحث إلى جمع الآيات من السور الأخرى التي تزيد في بيان معنى الآية أو السورة التي يُراد تفسيرها، ليتبين بذلك الناسخ من المنسوخ والعام من الخاص والمطلق من المقيّد والمجمل من المبين.

ويتبين كذلك كيف كانت عناية القرآن البالغة بالتذكير بتوحيد الربوبية، ثم يخلص منه إلى تقرير توحيد الألوهية، وأنه من أجله أرسلت الرسل؟

وكذا تفاصيل أحوال القيامة من الصعق والبعث والحشر والحساب والصراط، ثم الجنة والنار مما أكثر القرآن من ذكره تكراره؟

وكذا كيف كان تدرج تشريع الفرائض والأحكام ؟

وكذا يتبين منهج الدعوة المحمدية بوضوح تام، مثل: ما الذي قدمه الله في كتابه وما الذي أخره، وكيف خاطبهم ؟ ومتى قاتلهم ؟ ومتى منع من قتلهم ؟ وغير ذلك كثير من المسائل الكبار.

◆◆ وهذه أمثلة على ذلك:

◆ **المثال الأول:** ما قصه الله عز وجل من أحوال جوارح الإنسان يوم القيامة (القلب، الوجه، الرأس، العنق، الشعر، العينان، الطَّرْف، الصوت، الأذنان، الفم، الأيدي، الأرجل، الرُّكَب) كيف يكون حالها في ذلك اليوم؟

◆ تأمل هذه الصفات للجوارح في يوم القيامة:

صفة العينين يوم القيامة: وأذكر لك تسعاً منها فقط:

◆ **الصفة الأولى:** ازدياد قوتها وحدة بصرها هناك.

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢) ق. قال ابن كثير^(١): أي قوي؛ لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك، قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ (٣٨) مريم، وقال تعالى: ﴿... رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢) السجدة.

(١) تفسيره ٢٢٦/٤.

◆ الصفة الثانية: شخوص العينين وشدة نظرها واتساع انفتاحها حتى تلمع كالبرق، مع الدهشة والخيرة الكاملتين من هول ما ترى.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ﴾ (٧) القيامة، بكسر الراء وفتحها قراءتان سبعيتان، وبرق بالكسر من برق بصره يبرق برقاً وبروقاً إذا تحير واندesh، وبرق بالفتح من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه، كم قال تعالى ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١٧) الأنبياء، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَرُ﴾ (٤٢) إبراهيم.

◆ الصفة الثالثة: الخشوع والذل.

كما قال تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذُلُّهُ ۖ﴾ (٤٤) المعارج، وقال: ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ۖ﴾ (٩) النازعات.

◆ الصفة الرابعة: التقلب في الأحوال والإدراكات.

قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۖ وَالْأَبْصَرُ ۖ﴾ (٣٧) النور، قال القرطبي^(١): وأما تقلب الأبصار فالزُرْقَة بعد الكُحْل والعمى بعد البصر، وقيل: تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم.

◆ الصفة الخامسة: أنها لا تطرف خمسين ألف سنة.

قال تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (٤٣) إبراهيم.

◆ الصفة السادسة: أنها لا تستطيع أن تملأ عينها من النار لوهها.

(١) في تفسيره ١٢ / ٢٨٠.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّهُمْ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا حَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ

﴿٤٥﴾ الشورى، قال قتادة والسدي والقرظي وسعيد بن جبير وغيرهم: يسارقون النظر من شدة الخوف^(١).

◆ الصفة السابعة: أن لون عيون المجرمين هو الزرقة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمُ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٠٢﴾ طه، قال الإمام الشنقيطي في أضواء البيان^(٢): وقال تعالى في زرقة عيونهم: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون.

◆ الصفة الثامنة: أنها ترى معارفها وأحبائها ثم تعرض عنهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ﴿١٠١﴾ يَصْرُونَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ ﴿١١﴾ المعارج. قال ابن عباس رضي الله عنهما قال: يعرف بعضهم بعضا، ويتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض^(٣).

وقال ابن كثير^(٤): أي لا يسأل أخا له عن حاله وهو يراه عياناً.

◆ الصفة التاسعة: العمى والطمس على العيون.

كما قال تعالى: ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ ﴿١٧﴾ الإسراء، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ طه.

(١) ينظر تفسير القرطبي ٤٥/١٦ وغيره.

(٢) ٥٠٥/٧.

(٣) الدر المنثور ٢٨١/٨.

(٤) تفسيره ١٤٦/٤.

وهذه أحوال لا يلزم أن تكون في زمن واحد، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن رجلاً أتاه فقال: رأيت قوله ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، وأخرى ﴿عُمَيَّا﴾؟ قال: إن يوم القيامة فيه حالات: يكونون في حال زرقاً، وفي حال عمياً^(١).

◆◆ صفة الرأس يوم القيامة:

◆ الصفة الأولى: الإقناع مع الإهطاع.

كما في قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ ﴿٤٣﴾ إبراهيم، فالإقناع للرأس خاصة والإهطاع للجسد كله ومنه الرأس كما هو ظاهر من الآية. والإقناع لغة: هو رفع الرأس ومد العنق، وهذا هو الذي استفاد عن السلف والأئمة في تفسير الآية، زاد بعض أهل اللغة: رفع الرأس مع الميل^(٢). والإهطاع لغة: هو الإقبال على الشيء بالإسراع نحوه أو إدامة النظر إليه، مع الخوف أو الطمع ونحو ذلك^(٣).

قال الثعالبي في تفسيره^(٤): والمهطع المسرع في مشيه نحو الشيء مع هز ورهق

(١) الدر المنثور ٥/٥٩٨.

(٢) قال في اللسان في مادة هطع ٣٧٢/٨: والإقناع رفع الرأس في اعوجاج في جانب مثل الجانف والجانف الذي يعدل في مشيته فأما رفعه في استقامة فليس عندهم بإقناع.

(٣) قال في الصحاح: هَطَعَ الرجل، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يُقْلَع عنه، يَهْطَعُ هُطُوعاً. وأَهْطَعَ، إذا مَدَّ عنقه وَصَوَّبَ رأسه. وَبَعِيرٌ مُهْطَعٌ: في عنقه تصويبٌ خِلْقَةً. وَأَهْطَعَ في عدوه، أي أسرع.

(٤) ٢٣٤/٤ (٤)

ومد بصر نحو المقصد إما لخوف أو طمع ونحوه.

وقال ابن عطية^(١): والمهطع الذي يمشي مسرعاً إلى شيء قد أقبل عليه ببصره.

وقال أبو السعود^(٢): مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك.

ولذا قال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِك مُهْطِعِينَ﴾ ﴿المعارج﴾

مسرعين مقبلين إليك، مادي أعناقهم، ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك^(٣).

فهذه الأوصاف جميعاً متحققة في وصف هذا الرأس في استجابته لنداء الله له، فهي تقبل على الداعي مسرعة أجسادها، شاخصة أبصارها، ممدودة أعناقها.

وما جاء عن بعض السلف من ذكر صفة واحدة، والآخر يذكر صفة ثانية وهكذا؛ فإنها هو من اختلاف التنوع لا التضاد كما هو ظاهر، ولذا جمع بينها من تقدم من الأئمة رحمهم الله.

قال القرطبي في تفسيره^(٤): والمعنى متقارب، يقال هطع الرجل يهطع هطوعاً إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه، وأهطع إذا مد عنقه وصوب رأسه... وبغير مهطع في عنقه تصويب خلقة، وأهطع في عدوه أي أسرع.

ومن بديع التفسير قول الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى الساء لا ينظر أحد إلى أحد.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٠.

(٢) تفسيره ٩/ ٣٤.

(٣) تفسيره ٤/ ٣٩٥.

(٤) ١٣٠/ ١٧.

◆ الصفة الثانية للرأس: وهي تنكيسه وطأطأته من المجرمين خجلاً من الله عزوجل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ (١٢) السجدة، وهذه الصفة في الزمن بعد الصفة الأولى، فإن الأولى بعد نفخة البعث مباشرة كما قال تعالى: ﴿مُتَهَيِّعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ (٨) القمر، وأما الثانية فـ (عِنْدَ رَبِّهِمْ).

◆ الصفة الثالثة: الأخذ بنواصي المجرمين -وهو الشعر الذي يكون في مقدمة الرأس-.

كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (٤١) الرحمن، ﴿وَقَالَ كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٥) العلق.

◆ الصفة الرابعة: صبّ الحميم على رؤوسهم في النار.

قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١١) الحج ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٨) الدخان.

◆◆ صفة الوجوه يوم القيامة:

وقد وقفت على خطبة من خطب الجمعة، وهي وإن كانت خطبة جمعة! إلا أنها على الطريقة السلفية المحمدية من القرآن وإلى القرآن، ففيها ما يشفي ويكفي في بيان هذا الأمر وهي بعنوان «أحوال الوجه يوم القيامة كما بيّنها القرآن»^(١) جاء فيها، وقد

(١) وهي لفضية الشيخ عمر المقبل ألقاها في مدينة المذنب في شهر جماد الثاني ١٤٢٤ هـ.

أدخلت الترقيم على فقراتها للإيضاح :

« .. في ذلك اليوم تنقسم الوجوه إلى قسمين اثنين فقط :

◆ **الأول:** ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧) **آل عمران**، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠) **الزمر**.

◆◆ من أحوال الوجوه السود:

١- وهذه الوجوه المسودة -والعياذ بالله- لم تصل إلى أرض المحشر إلا بعد أن ضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، عند الاحتضار، وقبل الانتقال إلى عرصات الموقف، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠) **الأنفال** وكما قال عز وجل ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (٢٧) **محمد**.

٢- بل لقد أيقنوا بإفلاسهم، وسوء حالهم منذ أن رأوا الأمر عياناً، كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ (٢٧) **الملك**.

٣- إنها -كما قال الله-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: كالحة عابسة -تظن- أي تستيقن- ﴿تُظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: داهية عظيمة .

٤- إنها وجوه يومئذٍ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) **ترهقها قفرة** (٤١) **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ** **عبس**، فهي وجوه علاها الغبار، وغشاها القتار، وهو شبه الدخان، يعشى الوجه

من الكرب والغم، واستمع إلى سبب ذلك في قول ربك جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧) ﴿يونس.

٥- [الحشر على الوجوه] ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبَكَاءُ وَصَمًا مَّا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧) ﴿الإسراء، الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٤) ﴿الفرقان.

٦- فإذا كان هذا حال هذه الوجوه وهي في العرصات، لم تدخل النار بعد، فما ظنكم بالطريقة التي ستحشر بها هذه الوجوه الكالحة المسودة المكفهرة؟ وإلى أين؟ إلى النار!! استمعوا إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ دُخَانًا مِّنْ سَفَرٍ﴾ (٤٨) ﴿القمر، حتى إذا ما وصلوا إلى النار ألقوا وكبوا كباً كما يكب الشيء الذي كرهه صاحبه: ﴿وَمِنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠) ﴿النمل، فلعلهم يستطيعون أن يهربوا هنا أو هناك ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَىٰ الْمَفْرُءَ﴾ (١٠) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (١٢) ﴿القيامة، لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وَجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩) ﴿الأنبياء.

فإذا كان هذا حالها وهي تحشر إلى النار، فما ظنك بهذه الوجوه بعد أن تلفحها النار بلهبها المحرق؟ وما ظنك بها - بعد أن أضناها العطش وسألت الإغاثة لسد ما يجدونه من حرارة بطونهم - فإذا بهم يغاثون بماء كالمهل، يشوي الوجوه، ﴿يَسْكَ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ (٢٩) ﴿الكهف، اللهم إنا نعوذ بك من حال هؤلاء.

عباد الله: وفي مقابل هذه الأوصاف الموحشة، لتلك الوجوه الكالحة، فإن الله تعالى وصف وجوه أهل الإيمان بأوصاف تليق بها، جزاءً وفاقاً، إنها وجوه المتوضئين، الراكعين، الساجدين، إنها وجوه الذاكرين المختبين: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠٧) ﴿آل عمران﴾، يا الله ما أعظم الفرق بينهم وبين من يقدم أرض المحشر وقد بيّض الله وجهه، ونصّر جبينه، ويعدّه ربه برحمته الخالدة؟!.

ألا يحق لتلك الوجوه التي بشرت بجنة ربها، والخلود فيها أن تكون:

١- وجوهاً تعلوها النضارة، والسرور، بلى والله، ولذلك قال الله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٣)، ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤) ﴿المطففين﴾، وحق لها والله أن تكون ناضرة ! أليست هي الوجوه التي لطالما سجدت لله ! ولطالما تحدّرت دموعها من خشية الله ! أليست هي الوجوه التي حفظت ما فيها من جوارح: في سمعها وبصرها ولسانها عما لا يرضي الله؟

٢- ثم تاج ذلك كله: أن تتنضر في جنة النعيم برؤية رب العالمين سبحانه وتعالى، ذلك النعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو الزيادة التي وعد الله بها المؤمنين من عباده في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٦١) ﴿يونس﴾.

إنها الوجوه التي قال الله عنها: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٢٨) ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (٢٩) ﴿عبس﴾، ٣- إنها وجوه الناس الذين يأخذ أحدهم كتابه يمينه فيقول - من فرحه وسروره - ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُ وَإِنَّكَ نَاصِرَةٌ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْئِقٌ حِيسَابِيَّةً﴾.

٤- إنها: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (٨) ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ (٩) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١٠) ﴿الغاشية﴾

٥- ولئن كانت وجوه الكفرة، عليها غبرة، وترهقها قفرة، فقد سلمت وجوه المؤمنين من ذلك، بل هي كما قال الله: ﴿وَلَا يَرَهُمْ وَأَجْوَهِمْ قَرُّ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٦٦) ﴿يونس﴾. انتهى المقصود من الخطبة.

هذه بعض الجوارح وأدع لك بقيتها لتأمل صفتها يوم القيامة فيها حكاه الله لك في كتابه.

◆ **المثال الثاني:** ما قصه الله عز وجل من أحوال الجبال يوم القيامة أنها تكون كثيباً مهيلاً، وتكون كالعهن المنقوش، وأنها تسير كالسراب، وهكذا في عدد كبير من الآيات، فهذه الآيات جميعاً تتكلم عن أمر واحد وهو الجبال يوم القيامة، والذي ينبغي أن ندركه بلا ريب يخالطه هو أن هذه الإعادة والتشنية في ذكر ما يؤول إليه أمر الجبال هناك في اليوم الآخر ليس تكراراً محضاً، بل وراء ذلك سر عظيم.

يقول الإمام الأمين الشنقيطي في أضواء البيان^(١): واعلم أنه جل وعلا بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه فبين أنه:

١- ينزعها من أماكنها ويحملها فيدكها دكاً وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (١٤) ﴿الحاقة﴾.

٢- ثم بين أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض وذلك في قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨) ﴿النمل﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) ﴿الكهف﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٢) ﴿التكوير﴾، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٢٠) ﴿الحاقة﴾.

(١) ٩٧/٤، وترقيم الفقرات من عندي للتوضيح، والكتاب مطبوع مشهور.

النَّبَأُ، وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝١ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ الطور.

٣- ثم بين أنه يفتتها ويدقها كقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥﴾ الواقعة أي فتت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكْنًا دُكَّةً وَحِدَةً ۝١٤﴾ الحاقة.

٤- ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل وكالعهن المنفوش، وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٦﴾ الزمل، وقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩﴾ المعارج، في المعارج والقارعة، والعهن: الصوف المصبوغ....

٥- ثم بين أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦﴾ الواقعة.

٦- ثم بين أنها تصير سراباً وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ النِّبَأُ، وقد بين في موضع آخر أن السراب لا شيء وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۝٣٩﴾ النور.

٧- وبين أنه ينسفها نسفا في قوله هنا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥﴾ طه. اهـ كلامه رحمه الله.

وأنت ترى أنه ذكر بضع عشرة آية من الآيات العظيمة ليبين أحوال هذه الجبال في يوم القيامة؟

ولا يخفى أن كثرة الآيات في الباب تدل على أهمية الأمر وجليل خطره، كيف والمتكلم المكرر له هو الله جل في علاه؟

◆ **المثال الثالث:** ما قصه الله عز وجل من أحوال السماء يوم القيامة، وهي أعظم من سابقتها، لكنني أكتفي بالإشارة إليها فقط لشبهها بأحوال الجبال، وحتى لا أطيل فأثقل عليك، لا حرمني الله دعوة صادقة منك.

◆ **المثال الرابع:** في الفرق بين الأمر بالاجتناب والإخبار بالتحريم في القرآن. بدءاً يظن بعض من يُسمَّون بالمتقنين من المسلمين أن الخمر ليست حراماً اعتماداً على أن النهي عنها لم يأت بلفظ التحريم كما جاء في الميتة والدم ولحم الخنزير كما في قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيِّتَةُ وَالدَّمُ﴾ (٢) **المائدة**، وإنما جاء بلفظ ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠) **المائدة**.

وهؤلاء يلزمهم ببدهي القول: أن الزنا وأكل مال اليتيم والطاغوت والأوثان وقول الزور ليست بحرام هي أيضاً؛ لأنه لم يرد النهي عنها بلفظ التحريم في القرآن أبداً، وإنما ورد في الزنا بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢) **الإسراء**.

وفي أكل مال اليتيم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٣٤) **الإسراء**. وفي الطاغوت بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَعَسَوْا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣٦) **النحل**.

وفي الأوثان وقول الزور بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٠) **الحج**.

فقوله في الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ هو نفس قوله في الخمر: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾؛ لأن الأمر بعدم الاقتراب هو نفسه الأمر بالاجتناب لغة وشرعاً وعقلاً كما هو معلوم ظاهر.

فمن أشكل عليه ذلك ؛ فالنهي عن الطاغوت والأوثان وقول الزور وردت في القرآن بلفظ ﴿ فَاجْتَنِبُوا ﴾ ، فهل يشك مسلم في حرمتها لأنها لم ترد بلفظ التحريم؟! بل النهي عن السبع الموبقات جاء في الصحيحين وغيرهما بلفظ: «اجتنبوا السبع الموبقات»،، الشرك بالله والسحر وأكل مال اليتيم..»^(١).

إذا تبين هذا ؛ فنأتي إلى المقصود وهو:

لماذا جاء النهي عن الخمر بلفظ: ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ ولم يأت بلفظ ﴿ حُرِّمَتْ ﴾؟
وجواب ذلك بجمع الآيات في الباب وقد تقدمت جملة منها وستأتي بقيتها،
وبجمعها ثم النظر فيها يتبين - والله أعلم - أن المنهيات في القرآن على قسمين:

◆◆ منهيات تتعلق بها نفوس غالب الناس فطرة وطبعاً.

فالله جعل في النفس البشرية السّوية ميلاً لها - لحكمة أرادها عز وجل - ثم نهاهم عنها لحكمة أخرى وابتلاءً وامتحاناً، ولذا - أي لهذا التعلق الفطري - يقع في هذه المنهيات أكثر رعاي الناس وهمجهم - عياداً بالله - مثل: الزنا والخمر وأكل الأموال بالباطل ونحو ذلك، فهذه يأتي النهي عنها - غالباً - بلفظ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ﴾ ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ ، ﴿ فَاجْتَنِبُوا ﴾ ، ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ . لأن في هذه الألفاظ الأمر بشيئين: الامتناع والمباعدة معاً، وليس مجرد الامتناع فقط.

◆ والقسم الثاني: منهيات تنفر منها نفوس أغلب الناس فطرة وطبعاً.

ولا يميل إليها إلا من فسدت موازينه وانتكست فطرته، إما تقليداً أو عادة أو استكباراً ونحو ذلك، مثل: أكل الميتة والدم ولحم الخنزير - ومعلوم أنه

(١) البخاري (٢٦١٥)، ومسلم (١٤٥).

يأكل النجاسات- ونكاح المحارم وقتل النفس والظلم وغيرها، فهذه يأتي النهي عنها -غالبًا- بلفظ ﴿حُرِّمَتْ﴾، ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ونحوها، والأمر هنا إنما هو بشيء واحد فقط: وهو الامتناع.

وسرُّ ذلك؛ أن المنهيات في القسم الأول لما كانت تتعلق بها نفوس غالب الناس احتاج النهي إلى شيئين: الامتناع والمباعدة معاً لأنه إن اقترب وقع، أما المنهيات في القسم الثاني فلما كانت نفوس غالب الناس لا تتعلق بها كفى الأمر بالامتناع وعدم المقارفة فقط.

◆ ويظهر ذلك جلياً في المقارنة بين النهي عن الزنا والنهي عن نكاح المحارم:

فمع أن الثاني أشد تحريماً إجماعاً، إلا أن النهي عن الأول جاء بلفظ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢) ﴿الإسراء﴾، وعن الثاني بلفظ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ (٣٣) ﴿النساء﴾، وذلك لتعلق النفوس بالأول وهو الزنا دون الثاني، وهو نكاح ذوات المحارم، وغيرها كثير، والعلم عند الله.

◆ المثال الخامس: الآيات الواردة في الجهاد.

مرَّ الجهاد في هذه الشريعة الخاتم بمراحل:

المرحلة الأولى: كان الجهاد في أول الأمر منهيّاً عنه، مأموراً بضده من الكف والعفو والصفح والصبر ونحو ذلك، وذلك في حال الضعف قبل الهجرة وأول سنتين من الهجرة، وقد نزلت نيف وسبعون آية تنهى عنه في ذاك الحين كما قال أبو السعود في تفسيره^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَآيَاتِهِمْ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ وَالْأَسْمَاءُ﴾ (٧٧) النساء، وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ (١٠٩) البقرة، وقوله: ﴿فَاصْفَحْ﴾ (١١٩) الحجر، وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١١٩) الأعراف، وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠) المزمل، وغيرها كثير.

◆ يقول ابن القيم في زاد المعاد^(١): فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

◆ ويقول شيخ الإسلام في كلام مائع له في الصارم المسلول^(٢): فحيث ما كان للمنافق ظهور يخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية ﴿وَدَعِ أَذُنَهُمْ﴾، كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

◆ ويقول ابن القيم - وهو يبين الحكمة من ذلك - :

الوجه السادس: أنه تعالى نهى المؤمنين في مكة عن الانتصار باليد، وأمرهم بالعفو والصفح، لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضيم، ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة على مصلحة الانتصار والمقابلة^(٣).

(١) زاد المعاد ٣/ ١٥٩.

(٢) الصارم المسلول ٣/ ٦٨٣.

(٣) أعلام الموقعين ٣/ ١٣٨.

المرحلة الثانية: الإذن بالقتال أي مشروعيته دون إيجاب.

وذلك في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) **الحج**، وفي قوله (أُذِنَ) دلالة على أن هناك منع سابق.

يقول الإمام الأمين الشنقيطي في أضواء البيان:

«وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه... قالوا: ولما كان الجهاد فيه من المشقة، وأراد الله تشريعه شرعه تدريجاً فأذن فيه أولاً من غير إيجاب»^(١).

المرحلة الثالثة: الأمر بقتال من قاتلهم.

وذلك في قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا بِكُمْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) **البقرة**.

ثم قال الأمين الشنقيطي: ... ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ﴾ (٢).

◆ **المرحلة الرابعة: الأمر بقتال الكفار جميعاً.**

وذلك في قوله تعالى ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (٥) **التوبة**.

(١) ٢٦٣/٥

(٢) نفس السابق.

يقول الأمين الشنقيطي موضحاً:

ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ۚ﴾ ^(٥) التوبة، وقوله تعالى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ﴾ ^(٦) التوبة ^(١).

◆◆ لكن هذا القتال ليس مطلقاً بل قيد بقيود منها:

◆ أن القتال يبدأ بالكفار الأدنى مكاناً منّا.

كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ۚ﴾ ^(١١٣) التوبة، قال قتادة والضحاك في هذه الآية: الأدنى فالأدنى ^(٢).

وهذه المراحل ليس بعضها ناسخاً لبعض، بل هي جميعاً باقية، لكن تنزل كل مرحلة على الزمن الذي يشابهها، فقد يحتاج إليها في بعض العصور والأزمان كما هو ملاحظ، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام في الصارم المسلول ^(٣): **أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح**، وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ﴾.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة جداً، لكنني أختتم بالإشارة إلى واحدة من المسائل الكبار لما لها من الأثر في قبول دعوة الداعية أو ردها، وهي جمع آيات (مراحل)

(١) نفس المصدر.

(٢) الدر المشورج ٤/ ص ٣٢٤.

(٣) الصارم المسلول ٣/ ٦٨٣.

الدعوة التي مرَّ بها النبي ﷺ، أي ما الذي قدمه الله له وما الذي أخره؟ وأكتفي في هذه الإشارة بنقلٍ محررٍ عن الإمام شمس الدين ابن القيم في زاد المعاد^(١) يقول فيه:

◆ «فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي

الله عز وجل:

١- أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ.

٢- ثم أنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ﴿١﴾ قُورَافَانِدْرُ ﴿٢﴾﴾ المدثر، فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ (يا أيها المدثر).

٣- ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين.

٤- ثم أنذر قومه.

٥- ثم أنذر من حولهم من العرب.

٦- ثم أنذر العرب قاطبة.

٧- ثم أنذر العالمين.

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته، ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

٨- ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال.

٩- ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله.

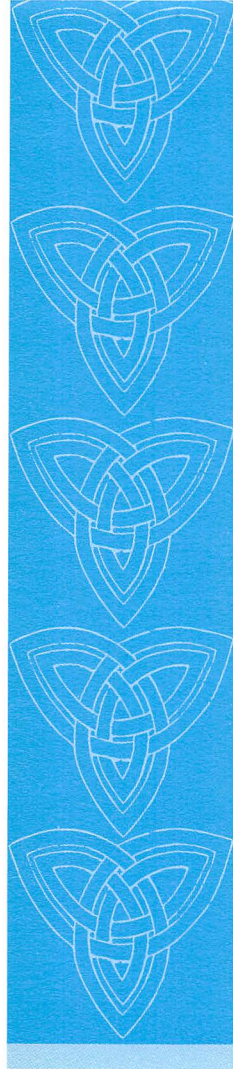
(١) زاد المعاد ٣/ ١٥٩.

١٠- ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله له. “اهـ

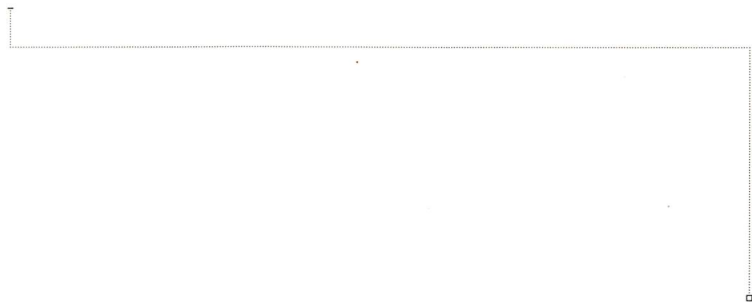
وكما سبق في آيات الجهاد، فهذه المراحل - أيضاً - ليس بعضها ناسخاً لبعض، بل هي جميعاً باقية لكن تنزل كل مرحلة على الزمن الذي يشابهها، فقد يحتاج إليها في بعض العصور والأزمان كما هو ملاحظ.

ولذا كل من أراد أن يدعو قبل أن يتعلم ؛ يقال له: قد خالفت منهج القرآن في تربيته للنبي ﷺ فاقراً أولاً ثم قم فأنذر، وكذا من دعا الأبعد وترك الأقارب، وكذا بقية المسائل، وبهذا يحذو المرء في دعوته حذو النبي ﷺ دون جفاء أو تفريط، ويقع الحافز على الحافر، والله أعلم.





المرحلة الثامنة



العناية بتدوين أخبار وقصص الأئمة سلفاً وخلفاً مع القرآن، ثم الاستشهاد بها في محلّها من التفسير. [وهذا مع عظيم فائدته إلا أنه من مُلح التفسير لا من متينه] من أتقن ما سبق من المراحل وضبطها فهو — بإذن مولاه — امتلاً رياً وحصّلاً المقصود من معرفة منهج تعلّم التفسير، وما بقي له مما يحتاج إليه في هذا الفن إلا النظر في المطولات من كتب علوم القرآن ومناهج المفسرين ونحو ذلك.

ولذا أختتم هذه المراحل بلطيفة مؤثرة في المتلقي اعتنى بها أهل التفسير بالمأثور، وهي ذكر ما يحضرهم من أخبار وقصص العلماء والصالحين سلفاً وخلفاً المتعلقة بالآية المفسّرة في محلّها من التفسير، لا على سبيل الاستقصاء، وإنما متى خال له أن في ذلك فائدة، إما في إحقاق حقٍّ أو ردع مُبطل، وإما تأثراً وخشية، أو إنابةً وتوبة، أو تزكيةً وتربية، أو تفقهاً واستنباطاً، ونحو ذلك كثير، ثم يذكرها مع الآية التي وردت القصة فيها.

◆◆ ومن أمثلة ذلك:

(١) ما ذكره ابن كثير عند قوله تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ الطور

◆ حكى ابن كثير في تفسيره: أن عمر رضي الله عنه خرج يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿وَالطُّورِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ الطور قال: قسم ورب الكعبة حق! فنزل عن حماره وأستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه.

وعن الحسن أن عمر قرأ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ الطور، فرباها ربوة، عيد منها عشرين يوماً^(١).

(٢) ما ذكره السيوطي عند قوله تعالى: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ ﴿٥٠﴾ الأعراف.

قال في الدر المنثور: عن عقيل بن شهر الرياحي قال: شرب عبد الله بن عمر ماء بارداً فبكى فاشتد بكاءؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله: ﴿وَجِئَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ سبأ، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿٥٠﴾ الأعراف^(٢).

(٣) ما ذكره الأمين الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ﴿٣٣﴾ الإسراء.

(١) ٢٤١/٤

(٢) الدر المنثور ٤٦٩/٣

◆ قال في أضواء البيان: استنبط عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من هذه الآية الكريمة - التي نحن بصددھا - أيام النزاع بين علي وبين معاوية - رضي الله عنهما - أن السلطنة والملك سيكونان لمعاوية، لأنه من أولياء عثمان رضي الله عنه وهو مقتول ظلماً، والله تعالى يقول ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا﴾، وكان الأمر كما قال ابن عباس.

قال: وهذا الاستنباط عنه ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة وساق الحديث في ذلك بسنده عند الطبراني في «معجمه» وهو استنباط غريب عجيب^(١).

(٤) ما ذكره ابن كثير في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْيَمَنِ يَدْعُونَ إِلَى الْفَحْشَىٰ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾^(٨) الأعراف.

قال ابن كثير: قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً^(٢).

(٥) ما ذكره ابن تيمية عن عمر بن عبد العزيز في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾^(١٤٠) النساء.

قال شيخ الإسلام: ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر وكان فيهم جليس لهم صائم فقال: ابدءوا به في الجلد ألم تسمع الله يقول (فَلَا تَقْعُدُوا)^(٣).

(٦) ما ذكره البغوي في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(١) أضواء البيان ٣/ ١٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣١.

(٣) مجموع الفتاوى ١٥/ ٣١٥.

وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَتَّخِذْ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ عِظْمَكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ النحل .

قال البغوي: قال أيوب عن عكرمة: إن النبي ﷺ قرأ على الوليد: ﴿إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...﴾ إلى آخر الآية، فقال له: يا ابن أخي أعد، فعاد عليه، فقال: إن له
والله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول
البشر^(١).

(١) ما ذكره النحاس - في كتاب الناسخ والمنسوخ - عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ الأعلی: قال: عمر بن عبد العزيز: أخرجوا زكاة
الفطر من قبل أن تصلوا صلاة العيد فإن الله عز وجل يقول ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ
اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ الأعلی^(٢). يريد أن الله عز وجل ذكر الزكاة قبل الصلاة.

وهذا استنباط بديع، ولا يخفأك أن هذه السورة - سورة الأعلی - كان النبي ﷺ
يقرأ بها في العيد كما في صحيح مسلم من حديث النعمان وفي الباب عدة أحاديث.
هذا غيضٌ من فيضٍ ما يذكره المفسرون بالأثر في أثناء تفسيرهم لآيات الكتاب
العزیز.



(١) البغوي ٨٢/٣.

(٢) الناسخ والمنسوخ / ٧٦١.

(فصل)

هذا النوع من البيان العملي لمنهج الأئمة -رحمهم الله- له أثره البالغ في زيادة الإيمان، في التهذيب والتربية، في الجدال والإقناع، وغير ذلك، ولذا أذكر بعضاً مما وقفتُ في هذا المعنى، ولعلها تكون -برحمة من الله وفضل- سنة حسنة لجمع ما جاء في هذا المعنى، وضمه إلى السورة التي يتعلق الخبر بها.

(١) في سورة الفاتحة:

• أرسل هشام بن عبد الملك إلى غيلان الدمشقي فقال: أَلَسْتَ كنت عاهدت الله لعمر بن عبد العزيز أنك لا تكلم في شيء من كلامك؟ قال: أقلني يا أمير المؤمنين! قال: لا أقالني الله إن أنا أفلتت يا عدو الله! أنقرأ فاتحة الكتاب؟ قال: نعم، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: قف يا عدو الله على ما تستعين الله على أمر بيدك أم على أمر بيده^(١)؟

• سورة البقرة:

• أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تعلم عمر رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً^(٢).

(١) تاريخ دمشق ٢٠٩/٤٨.

(٢) شعب الإيمان ٣٣١/٢.

● وذكر مالك في الموطأ أنه بلغه أن ابن عمر رضي الله عنهما مكث على سورة البقرة ثمانين سنين يتعلمها^(١).

● وعن مجاهد؛ أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلسهما واحد سواء؟ فقال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل. (هذا في بيان فضل التدبر على الإكثار من قراءة القرآن^(٢)).

(٢) سورة يوسف:

● في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ﴾ ٨٤ يوسف.

عن سعيد بن جبير قال: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم تعطه الأنبياء من قبلهم - يعني ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ١٥٦ البقرة - قال: ولو أعطيتها الأنبياء لأعطيتها يعقوب إذ يقول ﴿يَأْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ﴾.

● ومن جميل ما يذكر؛ أن الشيخ محمد رشيد رضا قد توفى عند تفسيره أواخر سورة يوسف لقوله تعالى ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ ١٠١ يوسف.

فاللهم فاطر السماوات والأرض أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

(٣) سورة المؤمنون:

(١) الموطأ ١/ ٢٠٥.

(٢) مصنف عبد الرزاق ٢/ ٤٩٠ رقم (٤١٨٨).

• عن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينما إبراهيم في الصيد على فرسه يُركضه إذا هو بصوت من فوقه يا إبراهيم ما هذا العبث ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) المؤمنون، اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة^(١).

• عن الحسن البصري كما في الطبقات لابن سعد قال: إن الحجاج من عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بسيوفكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإنه تعالى يقول ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴾ (٧٦) المؤمنون^(٢).

(٤) سورة الحج:

• في قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ (٦٠) الحج. يقول ابن كثير في البداية والنهاية:

وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم في القطيعة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً! وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالى ﴿ ثُمَّ

(١) القصة مشهورة وهي في مسند إبراهيم بن أدهم ١/ ١٨، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٨

وغيرهما.

(٢) البخاري (٥٧٢١)، ومسلم (٢٩٩).

بُعِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴿١﴾.

٥) سورة العنكبوت:

- قال ميمون بن مهران: ما أتى قوم في ناديم المنكر إلا حق هلاكهم ^(١).
يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَيْنَكُمُ لَمَّا تَأْتَوُكُمُ الرِّجَالُ وَقَطَّعُوا السَّبِيلَ وَتَأْتَوُكُمْ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرُ﴾ (٢٩) **العنكبوت** - إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤) **العنكبوت**، مع الحديث المتفق على صحته (كل أمتي معافي إلا المجاهرين).

٦) سورة يس:

- في البداية والنهاية لابن كثير: أن ميمون بن مهران قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَنبَأَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) **يس**، فبكى طويلاً ثم قال: ما سمع الخلائق بنعت قط أشد منه ^(٣).

٧) سورة الزمر:

- كان الضحاك إذا تلا قوله تعالى ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَفِيهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ﴾ (١١) **الزمر**، ردها إلى السحر.

٨) سورة الجاثية:

- قرأ تميم الداري رضي الله عنه سورة الجاثية فلما أتى على هذه ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

(١) ٢٣/١٤.

(٢) البداية والنهاية ٣١٨/٩.

(٣) البداية والنهاية ٣١٩/٩.

أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾ **الجانية**، فلم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام^(١).

(٩) سورة الطور:

• تقدمت حادثة عمر الفاروق مع قوله تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾

الطور.

• وعن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿فَمَنْبَأُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقْتَنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ **الطور** فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال علي ذلك، فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها^(٢).

وفي تاريخ بغداد: قال زائدة: صليت مع أبي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة وخرج الناس ولم يعلم أي في المسجد وأردت أن أسأله عن مسألة من حيث لا يراني أحد قال فقام فقرأ وقد افتتح الصلاة حتى بلغ إلى هذه الآية ﴿فَمَنْبَأُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقْتَنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ **الطور**، فأقمت في المسجد أنتظر فراغه فلم يزل يرددتها حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر^(٣).

• وفي الصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفَتُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ

(١) الدر المنثور ٤٢٧/٧.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/٢٥ رقم (٦٠٣٧) وينظر: حلية الأولياء ٥٥/٢.

(٣) ٣٥٧/١٣.

الْمُصَيِّرُونَ ﴿٣٧﴾ الطور، كاد قلبي أن يطير^(١).

(١٠) سورة القمر :

- قال القاسم بن معين: قام أبو حنيفة ليلة بهذه الآية: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ القمر يرددها ويبكي ويتضرع^(٢).

- ومما ذكره ابن كثير عن وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية قال: وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبدالرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة، وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهينا فيها إلى آخر اقتربت الساعة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ القمر^(٣).

(١١) سورة الحديد :

- لما أدخل ابن تيمية إلى قلعة دمشق مسجوناً، وصار داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ الحديد.

- وقال الفضل بن موسى: كان الفضيل بن عياض شاطراً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فيينا هو يرتقي الجدران إليها سمع رجلاً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴿١٦﴾ الحديد، فقال: يا رب قد آن، فرجع، فأواه الليل إلى خربة، فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم:

(١) البخاري (٤٥٧٣)، ومسلم (٤٦٣).

(٢) ٣٥٧/١٣.

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ١٣٨.

حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتأب الفضيل وأمنهم، وجاور بالحرم حتى مات^(١).

(١٢) سورة المزمل:

• سئل مالك عن مسألة فقال: لا أدري، فقل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، ألم تسمع قول الله: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ فَأَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (٥) المزمل^(٢).

(١٣) سورة الزلزلة:

• قال محمد بن كعب الإمام الرباني: لأن أقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، و﴿الْقَارِعَةُ﴾، أرددهما وأتفكر أحب إلي من أن أهد القرآن^(٣).
• وحين نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق قاعد فبكى حين أنزلت فقل له ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكي هذه السورة^(٤).

• وعن إبراهيم التيمي قال: أدركت سبعين من أصحاب ابن مسعود أصغرهم الحارث بن سويد فسمعتة يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، حتى بلغ إلى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧)، قال: إن هذا إحصاء شديد^(٥).
• وقال يزيد بن الكميث: قرأ بنا علي بن الحسين المؤذن في عشاء الآخرة ﴿إِذَا

(١) القصة مشهورة، وهي بهذا السياق في تاريخ الإسلام ١٢ / ٣٣٤.

(٢) ترتيب المدارك ١ / ٤٢.

(٣) صفة الصفوة ٢ / ١٢٣.

(٤) تفسير الطبري ٣٠ / ٢٧٠.

(٥) حلية الأولياء ٤ / ١٢٧.

زُلِّلَتْ ﴿١﴾، وأبو حنيفة خلفه فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا من يجزئ بمثقال ذرة خير خيراً أو يا من يجزئ بمثقال ذرة شر شراً أجر النعمان عبدك من النار وما يقرب منها من السوء وأدخله في سعة رحمتك.

قال: فأذنت فإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت، قال: تريد أن تأخذ القنديل، قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، قال اكنم على ما رأيت^(١).

(١٤) سورة التكاثر:

• وقال رجل لابن المبارك: قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكني أعرف رجلاً لم يزل البارحة يقرأ ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ إلى الصبح ما قدر أن يجاوزها، يعني نفسه^(٢).

• وفي صفة الصفوة: عن سعد بن زنبور قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا، فقليل لنا، إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن - وكان صيتاً - فقلنا له: اقرأ ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل، وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع، وأنشأ يقول:

بلغت الثمانين أو جزتها

فماذا أو مل أو أنتظر

(١) تاريخ بغداد ١٣/٣٥٧.

(٢) تاريخ دمشق: ٣٢/٤٣٥.

أتى لي ثمانون من مولدي

وبعد الثمانين ما ينتظر

علتني السنون فأبليمني ***

قال: ثم خنقته العبرة وكان معنا علي بن خُشْرَم فأتته لنا فقال:

علتني السنون فأبليمني

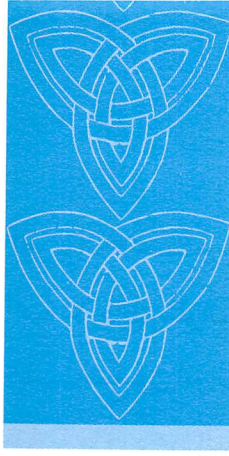
فرقت عظامي وكل البصر^(١)

وبهذا تنتهي هذه المراحل الثمان^(٢)، فتح الله لي ولك أبواب جنانه الثمان، وأسأل
الله العفو الغفور أن يتقبلها بقبول حسن، وأن يجعلها ذُخْراً أفرح بها حين ألقاه،
وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.



(١) ٢٣٩/٢.

(٢) بحمد الله في ليلة الخميس الثاني عشر من شهر رجب المحرم لعام ألف وأربعمائة وستة
وعشرين للهجرة.



فهرس

٥	مقدمة الناشر
٩	مقدمة المؤلف
١٣	تمهيد
٢١	المرحلة الأولى:
٢٣	الوقوف على الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ثم الصحابة ثم التابعين ..
٣٢	فصل: التفسير المروي عن الرسول و الصحابة و التابعين ثلاثة أنواع ...
٣٢	النوع الأول: ما ورد في فضائل الآيات والسور ..
٣٤	النوع الثاني: ما ورد في أسباب النزول ..
٣٦	النوع الثالث: التفسير المسند عن رسول الله وأصحابه وأئمة التابعين ...
٣٧	الآثار الواردة في التفسير المسند على نوعين ..
٣٧	آثار يراد بها إثبات عموم معناها لا دقائق ألفاظها ..

- آثار يراد الاحتجاج بها أو إثبات دقائق ألفاظها ٤٤
- أهمية الإحاطة بأقوال السلف في الآية المفسرة ٤٦
- كيف نجمع بين أقوال السلف المختلفة في الآية ٤٨
- مقارنة ما ورد عن السلف من التفسير بما جاء في كتب اللغة المصححة .. ٤٩
- المرحلة الثانية:** ٥٣
- إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية ومقارنتها بما جاء عن السلف.. ٥٥
- فصل: الناظر في كلمات القرآن يمكن جعلها على ثلاث مراتب ٥٧
- كيف يصل طالب فهم كتاب الله إلى دلالة الكلمة ؟ ٥٨
- المرحلة الثالثة:** ٦٥
- معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات ٦٧
- معرفة دلالة حروف المعاني على ثلاث درجات : ٦٨
- الدرجة الأولى : إدراك المعاني المشهورة لكل حرف ٦٩
- الدرجة الثانية : إدراك المعنى المراد (تقريباً) لكل حرف بحسب موضعه.. ٦٩
- الدرجة الثالثة : التحقيق عند اختلاف أقوال المحققين في المضايق ٦٩
- جدول يوضح أشهر المعاني لجملة من هذه الحروف ٧٠
- كيفية الوصول إلى معرفة دلالة حروف المعاني في الآية ٧٣
- التضمنين وعلاقته بحروف المعاني ٧٩
- المرحلة الرابعة:** ٨٧
- معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها ٨٩
- المبحث الأول : دلالة الجملة الاسمية والفعلية ٩٠

- المبحث الثاني : دلالة التقديم والتأخير في الجملة ٩٤
- المرحلة الخامسة: ٩٩
- فهم دلالة السياق (اللحاق والسباق) ١٠١
- أمثلة على ذلك : ١٠٢
- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ الآية ١٠٢
- قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ الآية ١٠٣
- قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ ١٠٤
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّرُ لِمَ تُوذُونَنِي﴾ الآية ١٠٥
- قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَنَنِ﴾ الآية ١٠٦
- قوله تعالى في سورة الماعون: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ ١٠٧
- قوله تعالى في آخر آية الدين: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ١٠٨
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ١٠٨
- قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ١٠٩
- قوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ جِجْجَ النَّخْلَةِ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا ﴿٢٥﴾﴾ ١٠٩
- قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ فِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ١١٠
- المرحلة السادسة: ١١١
- فهم مقصود السورة وما يتعلق به ١١٣
- اختلاف المفسرين فيه على ثلاثة أقوال ١١٤
- أمثلة على مقاصد السور واهتمام السلف بهذا الباب ١١٦

كيف يمكن أن نستخرج المقصود العام للسورة ؟ ١٢٥

المرحلة السابعة: ١٢٧

جمع الآيات التي تتكلم عن موضوع واحد في موضع واحد ١٢٩

أمثلة على ذلك : (١) صفات الجوارح يوم القيامة ١٣٠

(٢) أحوال الجبال يوم القيامة ١٣٩

(٣) أحوال السماء يوم القيامة ١٤١

(٤) الفرق بين الأمر بالاكتئاب والإخبار بالتحريم في القرآن ١٤١

(٥) الآيات الواردة في تشريع الجهاد وبيان مراحلها ١٤٣

فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى أن لقي

ربه عز وجل ١٤٧

المرحلة الثامنة: ١٤٩

العناية بتدوين أخبار الأئمة سلفاً وخلفاً مع القرآن ثم الاستشهاد بها في

محلها من التفسير ١٥١

أمثلة على ذلك ١٥٢

فصل: البيان العملي لمنهج الأئمة رحمهم الله وأثره في زيادة الإيمان

والتهذيب والتربية ١٥٥

فهرس ١٦٥

